التلوث البيئي أم الفساد في الأرض

نظرات في المصطلح

د. سعد خليفة العبار[1]

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للناس أجمعين، وعلى آله وصحبه الكرام الأطهار الطيبين ومن تبعهم بإحسان وسار على دربهم إلى يوم البعث والحساب، وبعد:

فلاشك أن التلوث البيئي من أكثر المشكلات في عصرنا أثرا وخطرا، فآثاره السيئة عمت الكون بشرقه وغربه، من أمراض مزمنة فتاكة، وتغير مناخي، وتصحر، وجفاف أنهار، وملوحة مياه، وارتفاع في درجة حرارة الأرض، واختلال في توازن عناصر الكون، وذوبان للجليد في القطب الشمالي، وانقراض أصناف من الكائنات الحية من حيوان ونبات وطيور وحشرات وأسماك، وتهديد لمدن آهلة بملايين السكان بالغرق، وشح في المياه الصالحة للشرب وللزراعة، فالغابات مساحتها تقلصت، وطبقة الأوزون ثُقبت، والموارد الطبيعية والغذائية شحت أو فسدت، والمراعي أبيدت، والنفايات سممت البحار والأنهار، وأدخنة المصانع لوثت الهواء، وجسد الإنسان نفسه تلوث بالعقاقير المسكنة والكيماويات المخصبة للتربة، وصار التلوث البيئي مشكلة مهددة للأمن القومي، لتعلقه ليس فقط بحاضرنا بل بمستقبل الأجيال القادمة، كونه لا يشكل فقط تهديدا لبقاء الموارد وديمومتها بل أيضا لقدرتها على التجدد لصالح الأجيال القادمة[2]، وأصبح الدفاع عن البيئة وحمايتها من الفساد ليس مجرد دفاع عن الصحة

---

[1]- عضو هيئة التدريس بقسم الشريعة الإسلامية بكلية القانون بجامعة بنغازي.

[2]- وبمرور الوقت تزداد المشكلة تعقيدا، لاسيما بعد التقدم الصناعي والتقني، وتهافت الدول جميعها، المتقدم منها والنامي، على تحقيق أكبر وأسرع معدل ممكن للنمو الاقتصادي، مما جعل البيئة أكثر عرضة من ذي قبل للاستغلال غير الرشيد لمواردها الطبيعية، ولانهدام وتدهور نظامها البيئي وتوازنه، بفعل تزايد الملوثات من نفايات ومواد كيميائية وصناعية.

وموارد العيش بل دفاع عن الحياة ذاتها، لأن التلوث لا يعرف حدودا، فما يحدث من فساد على النطاق المحلي تسري آثاره غالبا إلى النطاق الدولي[1]، فالغلاف الجوي متصل والبحار مفتوحة، والجميع عرضة للتلوث في كل عصر ومصر، بل إن التلوث النووي يهدد بهلاك ملايين البشر وإتلاف البيئة لعشرات قرون قادمة، فكأنه صار وريث المجاعات والأوبئة التي كانت تفتك بالبشر في الأزمنة الغابرة.

وتزداد المشكلة البيئية في بلادنا أهمية لأسباب عدة، منها تعاظم خطرها واستفحال ضررها، وفي المقابل ضعف -أو بالأحرى- عدم فاعلية وسائل الحماية منها، لدرجة استهتار واستهانة البعض بها، وعدم إدراك البعض جدواها، وتدني اهتمام أدوات التأثير في المجتمع وتوجيه الرأي العام فيه من وسائل إعلام ومؤسسات تعليمية وتربوية بها، حتى صارت بعض صور الإفساد في الأرض عادات موروثة وتصرفات للناس مألوفة، مقبولة اجتماعيا وغير منهي عنها في نظر البعض شرعيا، يضاف لهذا اتساع رقعة البلاد، وتوالي وتسارع التحولات الاقتصادية والسياسية وما واكب ذلك من انعكاسات على البيئة النباتية والحيوانية، وبالتالي على الإنسان نفسه، وما يحيط به من أرض وماء وهواء.

ولعل التصحر وما ترتب عليه من هجرة سكان الأرياف إلى مدن الساحل، وتفشي خطر كثير من الأمراض الفتاكة أكبر دليل على عمق واستفحال أثر المشكلة البيئية في بلادنا، وفي كل دول العالم[2]، فبعد أن كانت البيئة مصدرا للراحة والعيش الهنيء صارت مصدرا للأوبئة

---

[1]- من حيث النطاق الجغرافي لفعالية التلوث، التلوث قد يكون عابرا للحدود، وذلك إذا كان مصدره موجود كليا أو جزئيا في دولة، وتقع آثاره في دولة أخرى، وهذا الصنف من التلوث يمكن أن يتخذ صورتين، أولاهما تلوث ذو اتجاه واحد، وهو الذي يوجد مصدره في دولة وتحدث آثاره في أخرى، وثانيهما تلوث ذو اتجاهين، وهو ما تنتشر آثاره في الهواء، وتتردد في الانتقال بين دولتين، دولة المصدر ودولة الآثار، وقد يكون التلوث محليا، وضيق نطاقه جغرافيا لا يعني عدم جسامة آثاره، فهي قد تكون مدمرة أكثر من النوع الأول، وهذا الصنف لا تتعدى آثاره النطاق الاقليمي لمكان صدوره، فيكون مثلا في المصانع والمناجم والمزارع، وتقع آثاره فيها وفي ما يحيط بها جغرافيا.

[2]- لعدم إدراك حجم الكارثة البيئية في بلادنا من قبل الدولة ومؤسساتها يصعب أن نجد مؤشرات رقمية تنبه إلى خطرها، ولعل التذكير ببعض ما يتداول من أرقام في بلدان أخرى يفيد في تبين حجم هذه الكارثة، وما لحق بالكون بسبب أفعالنا من فساد، كوننا جزء من هذا العالم، بل نحن طرف ضعيف فيه، نتأثر به ولا نؤثر فيه، فمن جملة ما تم تداوله من حقائق في المؤتمر العالمي الثاني للأمم المتحدة حول البيئة والتنمية، والذي عقد سنة

والأمراض، وتعاظم خطر التلوث لدرجة أصبح معها مهددا للبشرية في صميم وجودها، وصار ينذر بما يشبه انتحارا جماعيا وشيكا، وفي المقابل تعاظُم الاهتمام الدولي والإقليمي بهذا الخطر يوجب أن يكون للعلم الشرعي وأهله حضور وكلمة للتنبيه على هذا الخطر، والتحذير من أسبابه، وإبراز سبل الحماية منه والدرء له.

وفي هذه البحث سنلقي جانبا من الضوء على بعض ملامح التلوث البيئي عبر رؤية شرعية، لا تنظر إلى أهمية المشكلة وخطورتها من خلال نصوص جزئية تناثرت هنا وهناك في الأبواب الفقهية، بل عبر نظرة اجمالية، تجمع شتات النصوص وتنظُمها في إطار عام، كون المشكلة تمس النظام الإسلامي في جوهره، لأن حفظ البيئة من التلوث ومنع الفساد فيها هو أحد المقاصد الشرعية التي يقوم عليها حفظ نظام الكون في مجمله، وتهدف الشريعة إلى مراعاته بنصوصها وقواعدها وكلياتها.

وسننطلق في بيان ذلك عبر ضبط المصطلحات المتعلقة بالموضوع كونه أوضح صور الفساد في الكون، المشار إليها في قوله جل وعلا: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ

1992م في ريو دي جانيرو بالبرازيل، أن إنتاج الحبوب في إفريقيا انخفض في السنوات الخمس والعشرين الأخيرة بمعدل 28% لكل فرد، وأن أثيوبيا فقدت 90% من غاباتها منذ سنة 1900م، وأن استراليا انقرض 28% من حيواناتها الأصلية، وأن الحياة البحرية في الخليج العربي تحتاج إلى 180 سنة لتتخلص من عشرة ملايين طن من النفط انسكبت أثناء حرب الخليج، وأن 10% من أنهار العالم ملوثة، وأن المحيطات تلتقط 6.5 مليون طن من النفايات سنويا، وأن العالم يخسر كل عام على الأقل 36 نوعا من الحيوانات الثدية، 94 نوعا من الطيور، وأن الغابات حول العالم تتناقص بمعدل 2% سنويا نتيجة للاستنزاف وتلوث الهواء المنتج للأمطار الحمضية، وأن التربة تتناقص باستمرار بمعدل 7% من الطبقة العليا كل عقد، بسبب الانجراف والزراعة الكثيفة، مما أدي إلى ملوحة التربة وتصحرها، يضاف لهذا توقُّع الخبراء بلوغ عدد المتضررين من نقص المياه مليارين من البشر بحلول عام 2025م، وثلاثة مليارات قبيل انتصاف قرننا الحالي، وتأكيدهم إصابة أكثر من ثلث مساحة الأرض بالتصحر خلال القرن العشرين، مما تضرر منه أكثر من مليار إنسان، ويُتوقع تضاعف حجم التصحر وعدد المتضررين منه بحلول عام 2050م. وتتبين لنا فداحة الكارثة البيئية لو علمنا أنه في بداية القرن العشرين كانت الغابة الاستوائية العذراء تغطي حوالي 16 مليون كم^2، ونتيجة للقطع المستمر للأشجار لم يبق منها عند انتهاء القرن الماضي إلا مساحة لا تزيد على خمسة مليون كم^2، وهذه الغابة تفقد سنويا مساحة توازي مساحة بلجيكا وهولندا معا، ولو علمنا أيضا أن نحو ستة مليون هكتار من الأراضي الصالحة للزراعة تتحول إلى صحراء، زد على هذا المليارات التي تنفق سنويا للتقليل من آثار التلوث أو منعها، مما يشكل عبئا إضافيا على اقتصادات الدول، لتبين لنا حجم الكارثة، ولنعلم فداحتها لنلحظ أن ما تصحر من أراضٍ زراعية خلال الخمسين سنة الأخيرة يعادل مساحة الهند والصين معا. ماتسورا: ص7، الصعيدي: ص18-22، حمود: ص183.

أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[1]، وأنه يقف على النقيض من الغاية من استخلاف الإنسان في الأرض، وبهذا فالتلوث لا يتعلق الحفظ منه بالإسلام ومعتنقيه فقط، بل يعم البشرية جمعاء، وهو بهذا ليس سوى صورة من صور الفساد في الأرض، ولما عبر الكتاب الكريم بالفساد عما يعبَّر عنه في عصرنا بالتلوث البيئي، فهذا يوجب علينا التساؤل عن المصطلح الأكثر تعبيرا عن المراد، وعن تأثير ذلك على جوانب الموضوع وأحكامه، فدقة تعبيرات القرآن -كما هو دأبه دائما- وإعجازه تجعلنا نقر ومنذ البداية أن المسألة ليست مجرد تخير مصطلح فقط بل إنها تتغلل في جوانب المسألة وتصبغها بطابعها.

كل هذا سنحاول استخلاصه بالاستناد إلى النصوص الشرعية، بغية بيان عمق وضرر التلوث البيئي، والتنبيه إلى خطورته، وذلك بتقسيم المتن إلى مبحثين، نتناول في الأول منهما بيان معنى تلوث البيئة، وفي ثانيها نعرض لبيان معنى المصطلح الشرعي الأقرب دلالة على التلوث البيئي وهو الفساد في الأرض، ونحن إذ نكتب هذا نسأله تعالى الإخلاص في القول والفعل، والسداد والتوفيق في النية والعمل، إنه نعم المولى ونعم النصير.

[1]- الروم: 41.

المبحث الأول

تلوث البيئة

لما كان هذا البحث يتناول بالبيان التلوث البيئي فهذا يقتضي ضبط معنى هذين المصطلحين في اللغة والاصطلاح على انفراد، توطئة لبيان ماهية التركيب "التلوث البيئي" في الاصطلاح.

التلوث لغة:

التلوث مصدره الفعل الثلاثي لوث، وقد جاء في معاجم اللغة أن من معانيه القوة والشر والجراحات والمطالبات بالأحقاد ولوك الشيء في الفم والبطء في الأمر، واللوث الخلط، ومنه حديث "أن رجلا من الأنصار كانت بلسانه لوثة"[1]، أي كان يتلجلج في كلامه، ومن معانيه أيضا الطي والجمع، يقال: لثت العمامة ألوثها لوثا، ومنه حديث بعضهم "فحللت من عمامتي لوثة أو لوثتين"[2]، واللوث التلطخ، وبهذا المعنى ذُكر في حديث القسامة، وهو أن يشهد شاهد واحد على اقرار المقتول قبل أن يموت أن فلانا قتلني، أو يشهد شاهدان على عداوة بينهما أو تهديد منه له أو نحو ذلك، والتلويث التلطيخ والخلط والاختلاط والالتفاف والإبطاء والقوة، يقال لوّث الماء كدّره، والتأثت عليه الأمور إذا التبست، والتأث بالدم تلطخ به، وفلان به لوثة أي جنون[3].

ويلاحظ من الاستعمالات اللغوية للفظ "لَوثَ" أن معانيه تدل على خلط الشيء بما ليس من جنسه ونوعه، فيكدره ويغير خواصه ويضره، والظاهر أن التلوث في اللغة يتردد بين معنيين، مادي يتمثل في اختلاط شيء غريب عن المادة بها، فيؤثر عليها ويفسدها، كتلوث

---

[1]- سنن البيهقي: كتاب البيوع، باب الدليل على أنه لا يجوز شرط الخيار في البيع أكثر من ثلاثة أيام، حديث رقم 10217.

[2]- مسند ابن حنبل: أول مسند البصريين، حديث رجل رأى النبي ﷺ، حديث رقم 19848.

[3]- ابن الأثير: ج4، ص275، ابن منظور: ج3، ص250، الفيروزآبادي: ج1، ص174، ابن زكريا: ج5، ص219.

الماء عند خلطه بالطين، ومعنوي يراد به التغيير الذي ينتاب النفس فيكدرها[1] أو الفكر فيفسده أو الروح فيؤذيها، والتغير يكون دائما في الحالين إلى ما هو أسوأ أو من أجل غرض ما[2].

والتلوث بمعنييه المادي والمعنوي يعني أنه صورة من صور فساد الشيء، سواء كان ذلك الشيء كائنا حيا كالإنسان والحيوان والنبات، أو غير حي كالماء والتربة والهواء، وهو بهذا أخص معنى من الفساد، لأن الفساد من صوره خلط الشيء بغيره وتغييرهوإتلافالشيء وتغيير صورته دون خلطه بغيره مع بقاء مادته على حالها، وتحويله لصورة أخرى والتعديل في خصائصه واستنزافه وتبذير موارده وإعطابه وتعييبه وإحداث خلل به أو ضرر أو اضطراب في نظام سيره أو العبث بتوازنه، سواء كان ذلك بإدخال شيء غريب عنه فيه على نحوٍ يفسده أو بجعله غير صالح لأداء وظيفته التي خلق لها[3].

التلوث في الاصطلاح:

كثرت التعريفات الاصطلاحية للتلوث، وتباينت في ألفاظها وفي تعبيرها عن حقيقته، وذلك بحسب تخصص صاحب التعريف العلمي والزاوية التي نظر إليها منه، ولذا فعرض جانب منها ربما يقرب لنا ماهيته، فقد عرفه البعض بأنه "كل إفساد مباشر للخصائص

---

[1]- وقد سبق للنبي ﷺ أن بين أثر البيئة على النفس البشرية بقوله ﷺ: "المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل"، سنن أبي داود: كتاب الأدب، باب من يؤمر أن يجالس، حديث رقم 4833، فصحبة الأخيار، أي بيئتهم، تورث الخير، وصحبة الأشرار، أي بيئتهم، تورث الشر، فانحراف الفرد عن السلوك الاجتماعي القويم ليس نتاج ضعف عقلي أو مرض نفسي، بل إنه ينشأ عن عوامل اجتماعية، فالبيئة الاجتماعية هي التي تقوده إلى الصلاح أو إلى الفساد، فمع أن الأصل فيه الصلاح، ولكن مجتمعه ومحيطه قد يقوده إلى غيره، فلو تُرك وحاله دون أثر للعوامل الاجتماعية لما كان إلا صالحا، ويؤكد هذا قوله ﷺ: "كل إنسان تلده أمه على الفطرة، وأبواه بعدُ يهودانه وينصرانه ويمجسانه، فإن كانا مسلمين فمسلم"، صحيح مسلم: كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة، حديث رقم 2658، فالبيئة الاجتماعية التي يمثلها هنا الأبوان هي التي تنمّي في الصغير المعاني الإسلامية السامية، أو المعاني الفاسدة التي لا يقرها الدين الحنيف، وذلك بتعويده على هذه أو على تلك. السويدي: ص4-5.

[2]- حجاب: ص95.

[3]- حمشة: ص27.

العضوية أو الحرارية أو البيولوجية أو الإشعاعية لأي جزء من البيئة"[1]، وعرفه آخر بأنه "كل ما يؤثر في جميع عناصر البيئة بما فيها من نبات وحيوان وإنسان، وكذلك كل ما يؤثر في تركيب العناصر الطبيعية غير الحية مثل الهواء والتربة والبحيرات والبحار"[2]، وعرفه ثالث بأنه "إدخال مواد لا يستفاد منها، أو إدخال طاقة إضافية إلى البيئة بواسطة الإنسان، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، ينشب عنها تلف في صحته أو في البيئة التي يعيش فيها أو في مسكنه وما يحتويه أو في عمله وما يرافقه فيه في كل من تربطه بهم علاقة مادية أو معنوية"[3]، وعرفه آخر بأنه "كل تغير كمي أو كيفي في مكونات البيئة الحية وغير الحية لا تقدِر الأنظمة البيئية على استيعابه دون أن يختل توازنها"[4]، وعرفه غيره بأنه "تغير كيفي في القدر الذي خلق الله به مكونات أو عناصر النظام البيئي، ناتج عن التدخل غير الرشيد للإنسان، ترتب عليه اختلال في توازن البيئة، بأن أعاقها أو هدد بإعاقتها عن أداء مهمتها التسخيرية للإنسان"[5]، وعند البعض هو "كل ما يؤدي بطريقة مباشرة أو غير مباشرة إلى التأثير سلبيا على سلامة الوظائف المختلفة لكل الأنواع أو الكائنات الحية على الأرض، وكذلك كل ما يؤدي إلى الإضرار بالعملية الإنتاجية كنتيجة للإقلال من كمية أو نوعية الموارد المتجددة المتاحة لهذه العلمية بشكل مباشر أو غير مباشر"[6]، وعرفه آخرون بأنه "ظهور شيء ما في مكان غير مناسب ولا يكون مرغوبا في هذا المكان"[7]، وعرفه المجلس الاقتصادي والاجتماعي للأمم المتحدة بأنه "التغيير الذي يحدث بفعل التأثير المباشر وغير

---

[1]- مرسي: ص104.

[2]- إسلام: ص19.

[3]- فتح الله والراجحي: ص7.

[4]- القاسمي والبعيني: ص16.

[5]- غانم: ص84.

[6]- دربي: ص10.

[7]- إسلام: ص17.

المباشر للأنشطة الاقتصادية في تكوين أو في حالة الوسط على نحو يخل ببعض الاستعمالات أو الأنشطة التي كان من المستطاع القيام بها في الحالة الطبيعية لذلك الوسط"[1]، وعرفته منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية بأنه "إدخال الإنسان، مباشرة أو بطريق غير مباشر، لمواد أو طاقة في البيئة، يستتبع نتائج ضارة على نحو يعرض للخطر الصحة الإنسانية، ويضر بالموارد الحيوية وبالنظم البيئية، وينال من قيم التمتع بالبيئة، أو يعوق الاستخدامات الأخرى المشروعة للوسط"[2]، وقرر البعض بكل وضوح واختصار أن التلوث هو عينه ما يراد به الفساد، فقال أن "تلويث البيئة هو إفسادها من جانب الإنسان"[3].

ومن كل ما سبق يمكن تقرير أن فكرة التلوث تقوم على أسس، اجتماعها هو ما يبرر التدخل لضبط تعامل الإنسان مع محيطه، وفرض المسئولية وربما انزال العقاب بمن صدرت عنه أعمال التعدي على البيئة، وتتمثل هذه الأسس في الآتي:

- التلوث بمعانيه كافة يشير إلى عدم النقاء أو الصفاء أو الطهارة أو النظافة[4].
- التلوث يشير إلى حدوث تغيير طارئ في الوسط الطبيعي المائي والهوائي والبري، لكنه ليس من طبيعته، وذلك بإخراجه عن دائرة الانتفاع به انتفاعا وفق الطبيعة التي خلقها الله عليها[5].
- هذا التغيير يحدث بواسطة فعل خارجي عن الوسط، وتحديدا هو فعل الإنسان، كقطع أشجار الغابات وإنتاج عوادم السيارات وأدخنة المصانع واستعمال المخصبات الكيميائية والمبيدات الزراعية وإجراء التجارب النووية.
- من شأن هذا التغيير إلحاق ضرر حال أو آجل بالبيئة، فالتغيير أيا كان مصدره لا يسترعي الانتباه إذا لم تكن له نتائج عكسية على النظام البيئي وتوازنه، يتمثل في القضاء على بعض أو

1- سلامة: ص9.

2- المصدر السابق: الموضع نفسه.

3- النجار: ص181.

4- السيد: ص360.

5- سلطان العلماء: ص35.

كل العناصر والموارد البيئية اللازمة لحياة الإنسان والكائنات الحية الأخرى أو التأثير على أدائها لوظائفها[1].

- التلوث ليس مجرد حدوث أي قدر من التغيير بل إنه يقع عند اختلال التوازن الفطري أو الطبيعي القائم بين عناصر ومكونات البيئة، باختفاء بعضها أو قلة عددها أو نسبتها بالمقارنة بما كانت عليه أو بالتأثير على نوعية أو خواص تلك العناصر[2].

وبتطبيق الأسس السابقة على ما جاء في قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[3]، يظهر لنا أن الآية قد جمعتها، فالتلوث ليس بالتأكيد صلاحا، ولا فعلُه من صالح الأعمال، بل هو فساد وإفساد، إذ لو كان غير ذلك لما كان منهيا عنه، والتغيير وإحداث الخلل في التوازن بين موارد البيئة نجده في قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾، فظهر فعل ماضٍ يدل على أن التغيير أو التعدي على البيئة قد وقع فعلا، ويومئ إلى دوام واستمرار ذلك التغيير أو الفساد الذي لحق ولا يزال يلحق الموارد الطبيعية التي خلقها الله، وعمل الإنسان هو من وراء ذلك التغيير، وقد عبرت عنه الآية بقولها: ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾، فأفعال الإنسان هي المسئولة عن الفساد الذي لحق الثروات الطبيعية وموارد البيئة، وإلحاق أو احتمال إلحاق الضرر بالموارد البيئية وبصحة الإنسان وبحياة الكائنات الأخرى جاء في قوله تعالى: ﴿لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾، والمراد لحوق المعاناة وتذوق الضرر والأذى الذي نتج عن عمل الإنسان[4].

---

[1]- سلامة: 9-11.

[2]- حمشة: ص32، سلامة: ص9.

[3]- الروم: 41.

[4]- سلامة: ص17.

البيئة لغة:

البيئة كلمة عربية أصيلة، مصدرها الفعل بوأ، وهو يرد بمعانٍ عدة[1]، حيث يقال: تبوأ المكان إذا حلَّه وأقام به واتخذه منزلا، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾[2]، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾[3]، أي أقاموا بالمدينة قبل هجرة النبي ﷺ إليها، وتبوأه أصلحه وهيأه، يقال: تبوأ فلان منزلاً إذا نظر إلى أحسن ما يرى وأمكنه لمبيته فاتخذه، وجاء في الحديث الشريف ما يؤكد معنى البيئة بحسب ما ورد في الكتاب الكريم، ومن هذا قوله ﷺ: "من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار"[4]، أي لينزل منزله من النار، وقوله ﷺ الذي جاء بوعيده لمن قال في القرآن بغير علم: "من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار"[5]، وعن فروة بن مسيك رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله: أرض عندنا يقال لها أبْيَن، هي أرض ريفنا وميرتنا (أي نشتري منها طعامنا) وإنها وبِئة (أي مرتع للأوبئة)، فقال ﷺ: دعها عنك، فإن من القرف التلف[6]، والقرف يعني الدنو من مصدر الوباء أو المرض[7]، وقوله ﷺ: "من عاد مريضا، أو زار أخا له في الله، ناداه منادٍ أن طبت وطاب مسعاك، وتبوأت من الجنة منزلا"[8].

[1]-لتتبع المعاني اللغوية للبيئة انظر ابن الأثير: ج1، ص160، ابن منظور: ج2، ص175، الفيروزآبادي: ج1، ص46.

[2]- يونس: 87.

[3]- الحشر: 9.

[4]- صحيح البخاري: كتاب العلم، باب إثم الكذب على النبي ﷺ، حديث رقم 3651.

[5]- سنن الترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه، حديث رقم 2950.

[6]- سنن أبي داود: كتاب الطب، باب الطيرة، حديث رقم 3923.

[7]- البستي: ج4، ص223.

[8]- سنن الترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في زيارة الإخوان، حديث رقم 2008.

والبيئة والباءة والمباءة المنزل، ولذلك سمي عقد النكاح باءة، لأن من تزوج امرأة فقد بوّأها منزلاً[1]، والبيئة الحالة، يقال: هو حسن البيئة، أي أن حالته حسنة، وباء بالفشل أي ساءت حالته، وبهذا يكون للفعل باء يبوء معانٍ أكثرها استعمالا اصلاح المكان وتهيئته للمبيت فيه، والنزول والإقامة فيه[2]، والظاهر أن كلمة بيئة تتناوبها في اللغة معانٍ ثلاثة، هي:

- المنزل الذي ينزله الإنسان ويختاره لنفسه سكنا، وغالبا ما يكون بجانب جبل أو قبالة نهر، وهذا يدل على أن الإنسان العربي كان يختار سفح الجبل سكنا له، ليتقي بذلك شدة الريح والمطر، وليكون قريبا من مورد الماء لنفسه ولدوابه، وهذا بلا شك أحسن المواقع سكنا.

- الحالة، ومعناها يكون بحسب ما توصف به من خير أو شر، ويراد بها سلوك الإنسان وأخلاقه وأوضاعه الاقتصادية والحياتية وما هو عليه من صحة ومرض وقوة وضعف.

- الوضع العام للإنسان في شئونه الدينية والدنيوية كافة من سيرة وسلوك وسكن ومأكل ومشرب وملبس وتعامل مع الغير، غير مقصور المعنى على جانب من كل هذا دون الآخر.

ويبدو أن المعنى الأخير أقربها دلالة على معنى البيئة المراد عند الكتاب المعاصرين، لشموله كل الأحوال، ولعدم قصره لمعناها على معنى بعينه[3].

استعمال لفظ بوأ في القرآن الكريم:

وردت مشتقات لفظ بوأ في الكتاب الكريم، والملاحظ من استعمالاتها فيه أن فيها ربطا بين السلوك والإيمان، والذي يعتبر حالة من حالات الإنسان الدنيوية، تقابلها حالة الكفر والفسوق والعصيان، ومن هذه الاستعمالات ما يأتي:

---

[1]- وبهذا المعنى ورد في حديث "من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء"، صحيح البخاري: كتاب النكاح، باب قول النبي ﷺ من استطاع منكم الباءة فليتزوج، حديث رقم 4778.

[2]- السيد: ص55.

[3]- السرطاوي: ص25.

- قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آَلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[1]، أي أن الله جعل أرض الحِجر، التي هي أرض عاد، مباءة ومنزلا، ثم بين كيفية اتخاذ تلك المباءة والمنزل، فذكر القصور المشيدة على ظهر الأرض السهلة المنبسطة، والبيوت المتخذة في الجبال بنحت حجارتها[2].

- قوله: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾[3]، وذلك ضمن النعم التي منَّ بها الله على بني إسرائيل، حيث أسكنهم أحسن منزل بعد أن أنجاهم وأهلك أعداءهم، فأنزلهم منزلا صالحا مباركا، وأورثهم مشارق الأرض ومغاربها التي بارك عز وجل فيها[4].

- وقوله: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾[5]، أي أذكر وقت جعلنا مكان البيت مباءة له عليه السلام، أي مرجعا يرجع إليه للعمارة والعبادة[6].

- وقوله: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾[7]، أي تنزلهم يوم أُحَد وتهيئ لهم مقاعدهم وأماكنهم للحرب[8].

- وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآَخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[1]، أي لننزلنهم في الدنيا منزلة حسنة، وهي الغلبة على من

1- الأعراف: 74.

2- الطبري: ج12، ص541، ابن عطية: ج3، ص604، ابن عاشور: ج9، ص220.

3- يونس: 93.

4- ابن عطية: ج4، ص526، ابن كثير: ج4، ص295، البغوي: ج4، ص150.

5- الحج: 26.

6- القرطبي: ج12، ص35، الطبري: ج18، ص604، ابن عاشور: ج18، ص220.

7- آل عمران: 121.

8- القرطبي: ج4، ص175، ابن كثير: ج2، ص111، البغوي: ج2، ص97.

ظلمهم من أهل مكة، وجعْل أنصار لهم، ورزقهم رزقا حسنا، وهذا قليل إذا ما قورن بما ينتظرهم في الآخرة[2].

- وقوله: ﴿وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾[3]، أي لننزلنهم من الجنة أعاليها، وهو الفردوس الذي وعد الله به المؤمنين نظير ما قدموا من أعمال صالحة[4].

- وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾[5]، أي يتخذ من مصر منزلا حيث يشاء، ويجعله مباءة له[6].

- وقوله: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِم﴾[7]، أي أنهم اتخذوا المدينة والإيمان مباءة، وتمكنوا فيهما أشد التمكن، وقيل تبوأوا دار الهجرة وأخلصوا الإيمان، أو دار الهجرة ودار الإيمان، وقد سمى المدينة بالإيمان لكونها مطهرة[8].

- وقوله: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾[9]، أي ينزل كل واحد منا في أي مكان أراده من جنته الواسعة[10].

- وقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآَ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾[11]، أي اتخذا مباءة ومنزلا ومحلا لقومكما، تسكنون فيها، ويجعلونها مكانا للعبادة[1].

---

[1]- النحل: 41.

[2]- البغوي: ص20، ابن عاشور: ج15، ص159، الطبري: ج17، ص207.

[3]- العنكبوت: 58.

[4]- القرطبي: ج13، ص331، ابن عطية: ج6، ص658.

[5]- يوسف: 56.

[6]- الطبري: ج16، ص152، ابن كثير: ج4، ص39، البيضاوي: ج3، ص163.

[7]- الحشر: 9.

[8]- أبو السعود: ج8، ص229، الألوسي: ج28، ص52، الزمخشري: ج6، ص81.

[9]- الزمر: 74.

[10]- الزمخشري: ج6، ص326، الطبري: ج21، ص324.

[11]- يونس: 87.

وبذا نتبين أن البيئة هي أحد أهم أسس النجاح أو الخسران في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وأنه من الخطأ الحكم على بيئة الإنسان من خلال ما يحققه من منافع شخصية وما يجلبه لنفسه من ثروات مادية، إذ لو كان هذا صحيحا لما كانت هناك بيئة أفضل من بيئة فرعون وقارون[2]، واللذين عاقبهما المولى ببعض عناصر هذه البيئة التي أطاعت ربها حينما غضب عليهما بسبب ما قاما به من إفساد وانكار لنعمه جلت قدرته[3]، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[4]، فالحياة السليمة هي المناخ الملائم والبيئة اللازمة لتطبيق شرع الله، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[5]، وإذا لم تتوافر بيئة تطبيق الشريعة على الوجه الأكمل والأنسب فلا تظهر الصورة الصحيحة للإسلام، فالاقتران بالبيئة قد يكون عامل نجاح، وقد يكون عامل فساد وإفساد، لأن الإنسان ابن بيئته[6]، كما أن الإنسان المعتل

---

[1]- القرطبي: ج8، ص279، ابن عاشور: ج12، ص265، ابن كثير: ج4، ص156.

[2]- فقد تحدثت آيات عديدة عن النعم التي أسبغها الله على فرعون وقومه، منها مثلا قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، يونس: 88، بل إن فرعون نفسه أقر بوجود هذه النعم، وإن نسبها لجهله وعناده لنفسه، كما في قوله تعالى: ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾، الزخرف: 51، أما قارون فقد سجل القرآن ما آتاه الله من خيرات في قوله تعالى:﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾، القصص: 76.

[3]- حيث سجل تعالى عقاب فرعون وقومه في آيات عدة، منها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾، البقرة: 50، وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾، الأعراف: 130، وقوله: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾، الأعراف: 137، وقوله: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، الأنفال: 52، وقوله: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾، الأنفال: 54، وقوله: ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (45) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾، غافر: 45-46، وبين تعالى عقاب قارون في قوله: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾، القصص: 81، وبين تعالى عقابهما وعقاب غيرهما ممن سار على نهجهما في قوله: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، العنكبوت: 40.

[4]- البقرة: 112.

[5]- النحل 97.

[6]- الزحيلي: ص6.

في جسده، المختل في عقله، المتخلف في سلوكه وعاداته، لا يستطيع أن ينتج أو يشارك في النهضة بمجتمعه، لأنه فاقد لوجوده ودوره، فيضمحل تدريجيا إلى أن يمحى من الوجود[1].

البيئة في الاصطلاح:

تعددت عبارات العلماء المعاصرين في تحديد معنى البيئة، وتنوعت في تصوير معنى جامع لها، ويمكن إرجاع ذلك إلى شيوع هذه اللفظة في الاستخدام في السنوات الأخيرة، بحيث أصبحت مرتبطة بجميع مجالات الحياة، وصارت تجري على ألسنة العامة والخاصة[2]، وكذلك تعدد معانيها وشمولها، بحيث صار كل من أطلقها أراد منها جانباً من حقيقتها لا كلها، صوّره في ما أراده منها في حدود استخدامه المباشر لها، لا سيما وأن مدلولها ارتبط بنمط العلاقة بينها وبين مستخدمها وتخصصه ومستواه العلمي وثقافته، فكان بحسب الإطلاق العامي رحم الأم بيئة، والبيت بيئة، والمدرسة بيئة، والحي بيئة، والكرة الأرضية بيئة، بل الكون كله بيئة[3].

كما اختلف مفهوم البيئة بحسب ما ارتبط بها من نشاط يُنظر من خلاله إليها، حيث يقال في زماننا مثلا: البيئة الزراعية والبيئة الصناعية والبيئة الحضرية والبيئة الريفية والبيئة الثقافية... وهكذا[4]، ولهذا يبدو من العسير وضع تعريف جامع مانع لها، يشمل كل مكوناتها، ويستوعب جميع مجالاتها، لأن ذلك يتطلب الإلمام بإطار كل تلك المجالات والمكونات في عمومها وخصوصها، رغم ما يكون بينها من تباين وتنافر أحيانا[5].

---

[1]- القدال: ص2.

[2]- عبد المطلب: ص7، دربي: ص8.

[3]- مروة: ص24، السدلان: ص5، دربي: ص9، الطعيمات: ص53.

[4]- الطعيمات: ص53.

[5]-صباريني: ص14، دربي: ص8.

ورغم جزم البعض بأن مفهوم البيئة لا يزال غامضا، وأنه ليس هناك تعريف واحد محدد يبين ماهيتها ويحدد مجالاتها[1]، وأن كثرة استخدام هذا المصطلح في الدراسات الحديثة قد يوحي بوضوحه، لكن ذلك مجرد مظهر خادع، فهي ليست إلا جسما هلاميا غير محدد الأبعاد[2]، فإن عرض جانب من محاولات أهل العلم لتعريف البيئة يقرب لنا حقيقتها، ويعين على تلمس ماهيتها، ومن ذلك تعريف بعضهم لها بأنها "مجموع الظروف والعوامل الخارجية التي تعيش فيها الكائنات الحية وتؤثر في العمليات الحيوية التي تقوم بها"[3]، وعرفها بعضهم بأنها "الإطار الذي يعيش فيه الإنسان بما يضم من ظاهرات طبيعية وبشرية، يتأثر بها ويؤثر فيها، ويحصل فيه على مقومات حياته من غذاء وكساء ومأوى، ويمارس فيه علاقاته مع أقرانه من البشر"[4]، وهذا هو التعريف الذي قال به أول مؤتمر دولي يدرس القضايا البيئية، وهو مؤتمر البيئة البشرية المنعقد في استكهولم سنة 1972م[5]، عندما قرر أن البيئة هي: "مجموعة من النظم الطبيعية والاجتماعية والثقافية التي يعيش فيها الإنسان والكائنات الأخرى، والتي يُستمد منها زادهم ويؤدون فيها نشاطهم"[6]، وبناء على هذا التعريف البيئة ليست مجرد موارد يتجه الإنسان إليها ليستمد منها ما تقوم به حياته، بل إنها

1- سلامة: ص6، عبد المطلب: ص7.

2- عبد المطلب: ص8.

3- النجار: ص181.

4- الحمد وصباريني: ص25، عيسى: ص8.

5- حمشة: ص7. يمكن القول أن هذا المؤتمر كان نقطة بداية الاهتمام العالمي بالتلوث البيئي، وبعده تزايد الاهتمام بالبيئة والتحذير من مخاطر الإفساد فيها، فأنشئت في دول عديدة وزارات وهيئات ووكالات للنهوض بالبيئة والمحافظة على موارد الطبيعة، وسنت تشريعات بقصد خلق إطار قانوني لحماية البيئة من التلوث، وعقدت معاهدات جماعية وثنائية بين الدول من أجل محاربة التلوث البيئي الدخيل على حياة الإنسان المفسد لفطرتها، ويجب أن نلاحظ هنا أن الهيئات الدولية لم تنتبه إلى مشكلات البيئة إلا في سبعينات القرن العشرين، من خلال مؤتمر استكهولم سنة 1972م، وبعده خمل النشاط الدولي، فلم ينعقد المؤتمر الدولي الثاني إلا سنة 1992م، في ريو دي جانيرو بالبرازيل، أي بعد عشرين سنة من المؤتمر الأول، ومع هذا فكل هذه الجهود تبدو متأخرة وبطيئة وضعيفة الأثر وعاجزة عن وقف تيار الإفساد في الأرض الذي يجتاح العالم، لتغافلها عن الجانب الروحي وأثره في الحد من الفساد في الأرض ومحاربته، ولأنها لم تظهر إلا بعد أن أصبح الخطر محدقا وباديا للعيان. السرطاوي: ص22، سلامة: ص4، ص15، ضاهر: ص6.

6- مرسي: ص19.

تشمل بالإضافة لهذا علاقته بمجتمعه، والتي تنظمها مؤسسات اجتماعية وعادات وأخلاق وقيم[1]، فالبيئة أصبحت تدل على أكثر من مجرد عناصر طبيعية، تتمثل في الماء والهواء والتربة والمعادن والنباتات والحيوانات، إذ صارت تشمل أيضا رصيدا من الموارد الاجتماعية المتاحة في وقت ما وفي مكان ما لإشباع حاجات الإنسان وتطلعاته[2]، وعلى هذا فالبيئة - بحسب هذا التعريف- تتكون من بعدين:

- بُعد طبيعي يشمل الأرض وما عليها وما حولها من ماء وهواء، وما ينمو على سطحها من نبات، وكذلك ما في جوفها من ماء ومعادن.

- بُعد مشيّد، يتألف من المكونات التي أقامها الإنسان، ساكن هذه البيئة الطبيعية، من مصانع وطرق ومدارس ومستشفيات وما إلى ذلك من منشآت، ويضاف إليها ما استحدثه من عادات ونظم وتقاليد ومعتقدات، ينظم بها علاقات البشر في ما بينهم، كانوا فرادى أم جماعات أم دولة ومؤسساتها[3].

فالبيئة إذا تشمل بعدا طبيعياً، وأبعاداً أخرى اجتماعية واقتصادية وتكنولوجية وتاريخية وثقافية وأدبية وغير ذلك، حيث يتفاعل كل بُعد منها مع بقية الأبعاد، ليلعب دوراً في تحقيق التوازن بين هذا الكل من الأبعاد[4].

ومن جانب آخر اقتصر البعض في تعريفه للبيئة على أنها الوسط أو المحيط الذي يعيش فيه الإنسان، فعرفها البعض بأنها "المكان الذي يُتخذ منه موطناً ومعاشاً"[5]، وعرفها آخر بأنها "الوسط الذي يعيش فيه الإنسان بما يضم من مظاهر طبيعية خلقها الله، فيتأثر بها ويؤثر

1- موسى: ص18.

2- النجار: ص187-188.

3- مروة: ص25، الحريري: ص2، سلطان العلماء: ص7، ضاهر: ص6.

4- الرباط: ص14-15.

5- الحفار: بيئة من أجل البقاء، ص43.

فيها"[1]، وعرفها البعض بأنها "الوسط أو المجال المكاني الذي يعيش فيه الإنسان بما يضم من ظاهرات طبيعية وبشرية يتأثر بها ويؤثر فيها"[2]، فهي بهذا الإطار الذي يمارس فيه الإنسان حياته ونشاطاته المختلفة[3].

وبناء على هذه التعريفات تكون بيئة الإنسان هي الأرض، فهي الوسط أو المحيط المهيأ والمناسب لحياة الإنسان الدنيا، بما يشمله من ماء وتربة وهواء وكائنات حية ومنشآت أقامها الإنسان لإشباع حاجاته، إذ ثبت أنه لا حياة للإنسان في غير بيئته الأرضية التي ولد ونشأ فيها[4].

وعرفها آخرون بتعريف شديد الاختصار، وإن كان فيه كثير من العموم والشمول، عندما قال بأن البيئة هي "كل شيء يحيط بالإنسان"[5]، وقريب منه قول بعضهم بأنها "كل ما يحيط بالكائن من ظروف وعوامل تؤثر فيه"[6]، فهي كل ما هو خارج عن كيان الإنسان وكل ما يحيط به من موجودات[7]، وبهذا التعريف صارت البيئة تدل على أكثر من مجرد عناصر طبيعية، تتمثل في الماء والهواء والتربة والمعادن والنباتات والحيوانات، بل تشمل كذلك الموارد المادية والاجتماعية المتاحة في وقت ما، في مكان ما، لإشباع حاجات بني البشر وتطلعاتهم[8].

ويبدو لنا أن كل هذه التعريفات وما يدور في فلكها لا تخلو من جانب كبير من الوجاهة، وإن وجهت لها بعض الانتقادات من حيث مدى شمولها أو اقتصارها على وجه من وجوه

1- مرسي: ص18.

2- عبد المطلب: ص7.

3- إسلام: ص9.

4- الحلو: ص31-32، حمشة: ص20.

5- الحفار: الموسوعة البيئية العربية، ج1، ص13.

6- رمضان: ص108.

7- إسلام: ص9.

8- صباريني: ص28.

البيئة، وهي جميعها أشارت إما تصريحاً أو تلميحاً إلى شمول معنى البيئة للظواهر الطبيعية والظواهر البشرية معاً، وهي على تعددها تكشف أن تعريف البيئة صار بمضي الزمن في جانبه المادي يقترب شيئا فشيئا عند الباحثين المعاصرين من كونه الأرض وما عليها من ماديات[1].

خصائص البيئة:

على غرار التعريفات السابقة يمكن تعريف البيئة بما يجمع عناصرها ويجلي معناها بالقول بعبارة بسيطة أن البيئة هي "كل ما يحيط بالإنسان من ظواهر يرتبط معها بعلاقات متبادلة"[2]، وهذا التعريف على وجازته يبرز لنا خصائص البيئة، والتي تتمثل في:

- شمولية معنى البيئة، بحيث أن كل ما يحيط بالإنسان من مكونات في هذا الكون هو بيئة، وتكون الأرض بما تشمله من غلاف يابس ومائي وجوي وما عليها وما في جوفها من مكونات حية وغير حية هي أول ما يصدق عليه التعريف، لأن الإنسان في تماس وتفاعل مباشر معها.

- البيئة لا تنحصر في البيئة الطبيعية، فهذا بعض من مكوناتها فقط، لأنها تشمل أيضاً البيئة البشرية التي شيدها الإنسان، لأن كلمة ظواهر تشير إلى الظواهر الحية وغير الحية، الطبيعية والبشرية.

- مكونات البيئة ليست عناصر جامدة، بل هي دائمة التفاعل فيما بينها، والإنسان يرتبط معها بعلاقات تأثر وتأثير متبادل، ليحصل منها على ما به معاشه، وبهذا فالبيئة هي كل ما يحيط بالإنسان من ظاهرات حية وغير حية، وعناصرها تكون في حركة مستمرة ومتناغمة، متوافقة في ذلك في نظام معين، يمكن تسميته بالنظام البيئي[3].

---

[1]- ضاهر: ص5.

[2]- مروة: ص26.

[3]- سعيد الحفار: الموسوعة البيئية العربية، ج1، ص136.

- تتألف البيئة من مكونات حية وغير حية، وتتشكل غير الحية من ثلاثة نظم متشابكة، هي الجو والمياه واليابسة، بينما تشمل المكونات الحية أعدادا هائلة من الكائنات المتنوعة في أشكالها وأحجامها وألوانها وطرق معيشتها[1].

- مكونات البيئة ليست معزولة بعضها عن بعض، فالاتصال المنتظم تأثراً وتأثيراً قائم فيما بينها، وهو شرط لاستمرار اتزانها، ولذلك توصف الأرض، كونها بيئة الإنسان، بأنها نظام مغلق، لأن جميع الأنظمة فيها مرتبطة مع بعضها البعض ومتداخلة فيما بينها، وهي مستقرة ومتوازنة ذاتياً، وكل جزء منها يؤثر في الأجزاء الأخرى ويتأثر بها[2]، وهذه المكونات التي هي موارد أتاحها الله للإنسان، ليحصل منها على ما به حياته، قد تكون دائمة كالماء والهواء، وقد تكون متجددة كالأحياء النباتية والحيوانية بأنواعها، وقد تكون غير متجددة، أي ناضبة، كالمعادن بأنواعها[3].

البيئة في الاصطلاح الشرعي:

لم ترد كلمة بيئة لا في القرآن الكريم ولا في السنة النبوية المطهرة، لكن مدلولها ارتبط دائما بكلمة الأرض، فلم يستخدم القرآن أبدا كلمة بيئة للتعبير عن المحيط أو المكان الذي يعيش فيه الإنسان، وإنما استخدم كلمة الأرض، شاملة ما عليها من جبال وسهول وما فيها من حيوانات ونباتات للدلالة على هذا المعنى[4]، فمثلا الفعل تبوأ قُرِن بالأرض مباشرة في قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا

---

[1]- المرجع السابق: ج4، ص2703، صباريني: ص76.

[2]- عبد المنعم: ص12. والدليل على هذا التوازن الذاتي أنه لو أن حريقا شب في غابة، فأحرق جزء من أشجارها، فإنه بعد أعوام قليلة تعود هذه القطعة المحترقة إلى سيرتها الأولى، فتنمو بها حشائش وأعشاب، وسرعان ما تكتسي بالأشجار مرة أخرى. إسلام: ص9.

[3]- رستم: ص23-24.

[4]- سلطان العلماء: ص5.

وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾[1]، ولما كان الفعل تبوأ لغة يأتي بمعنى أنزله منزلاً ومكّن له فيه وهيأه له، والاسم منه بيئة، فتكون الأرض بمفهومها العام هي البيئة في المدلول القرآني.

وتطلق كلمة الأرض في القرآن الكريم على الكوكب الذي نعيش فيه، وهي بهذا تقابل السماء، كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾[2]، كما قد تطلق الأرض على جزء من هذا الكوكب، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[3]، كما تطلق الأرض في الكتاب الكريم على الجنة، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾[4]، وجميع ما ورد من ألفاظ الأرض في القرآن الكريم معرفا بالألف واللام لا يخرج عن أحد هذه المعاني الثلاثة[5]، ومما يؤيد أن البيئة في المدلول القرآني هي الأرض بما عليها وما فيها من مكونات ومسخرات ما يلي:

- جعل الله آدم خليفته في أرضه بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[6]، وقرر ذلك في حق ذريته من بعده بقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾[7]، وبين تعالى الغاية من هذه الخلافة في قوله: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[8]، وليس لهذه الخلافة من محل إلا الأرض، ولهذا كانت الأرض وما فوقها هي البيئة التي دار ويدور فيها الصراع بين الخير والشر، وهي التي تكفل المولى فيها لأمة الخير بأن يكونوا خلفاء لمن قبلهم من الأمم والقرون التي أهلكها تعالى، للابتلاء والنظر

---

[1]- الأعراف: 74.

[2]- البقرة: 22.

[3]- يوسف: 55.

[4]- الزمر: 74.

[5]-الحوفي: ص63.

[6]- البقرة: 30.

[7]- الأنعام: 165.

[8]- هود: 61.

كيف يعملون، حيث قال: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[1]، وقال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[2]، وفي هذا إشارة صريحة إلى أن المراد بالبيئة هو الأرض، وفيه أيضا إشارة صريحة إلى أن الله يمهل الأقوام والأمم التي تعمل وفق ما يعكر صفو هذه البيئة ويلوثها بفساده، فإن تمادوا وطفح الكيل أنزل الله بهم غضبه وعقوبته، ليعود التوازن إلى بيئة الأرض، وينقشع عنها هذا الفساد، وهكذا هي سنته تعالى في كل عصر ومصر، والتي يؤكدها قوله ﷺ: "لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة حتى يأتي أمر الله"[3]، وهذه الفئة لم تكن منصورة إلا لأنها تعمل جاهدة على تغيير المنكر، وقبل هذا تمتنع عن فعله، وتزيل أسباب الفساد إن وقع، فتصلح ما أفسده القوم بجهلهم وإسرافهم وانحرافهم عن منهج الحق[4].

- الاخلال في الخلافة اخلال بوظيفة اجتماعية وسياسية، ينتج عنه زوال النعم أو تراجعها بمقدار الخلل الداخل عليها، وليس لتلك النعم من محل إلا الأرض، فكانت البيئة هي الأرض، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾[5]، وهذا يقتضي أن تكون الأرض بمكوناتها وما على ظهرها من النعم وما في باطنها من كنوز ومعادن مهيأة وميسرة للإنسان من أجل أن يعيش حياة رغدة، ولا يمكن أن يتم ذلك إلا في بيئة يسودها التناسق الذي يجب أن يكون بين تلك الأرض وبين الإنسان الذي يعيش عليها[6]،

---

[1]- يونس: 14.

[2]- النور: 55.

[3]- سنن البيهقي: كتاب السير، جماع أبواب السير، باب اظهار دين النبي ﷺ على الأديان، حديث رقم 18049.

[4]- السرطاوي: ص43.

[5]- الأعراف: 10.

[6]- السرطاوي: ص50-52.

والمتفحص للآيات القرآنية يدرك أن البيئة مرتبطة ارتباطا وثيقا بالأرض والمكان، بل إن البيئة هي الأرض ذاتها، وأن ذلك متعلق بالأفعال التي من أجلها حسُنت البيئة أو ساءت، فالبيئة (الأرض) حين تكون طيبة يوكل أمرها إلى سادة القوم وصلحائهم، كما هو الحال في التمكين ليوسف وموسى وهارون عليهم السلام، كما يشعر المرء وهو يتمعن في الآيات القرآنية أن لكل أمر بيئة تناسبه، وليس للبيئة هنا من معنى سوى الأرض، إذ للعبادة محلها الذي يُهدى إليه أولو الأمر من الأنبياء والصالحين، كما في تحديد الكعبة لإبراهيم عليه السلام[1]، وفي اختيار موسى وأخيه هارون عليهما السلام أماكن سكن قومهما لتكون صالحة للعبادة فيها[2]، وللحرب بيئة تختلف عن بيئة السلم، وليس للحرب من محل سوى الأرض وما عليها[3].

- أعلن القرآن الكريم أن السموات والأرض وما بينهما قد سخرت لخدمة الإنسان، ومن ثم كانت تلك الأرض وما تحتها وما فوقها هي المسرح الطبيعي الذي يتحرك فيه الإنسان[4]، وفي هذا يقول تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[5]، وهذا المعنى فيه فائدة إيمانية، تتمثل في أن تسخير الأرض وما تحتها وما فوقها كبيئة للإنسان، وحثه على التأمل والتدبر فيها، وما فيها من بديع صنع، وينتهي ذلك التأمل بالإنسان إلى اليقين بوحدانية الله جلت قدرته، وإلى أن الحفاظ على الأرض نقية من الفساد هو شرط الحياة السليمة التي جاء بها الإسلام للإنسان، وبالتمعن في الكتاب الكريم وما ورد فيه من بيان لمصائر السابقين يهتدي العاقل إلى عدم الوقوع في أخطائهم، فلا

---

[1]- في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾، البقرة: 125، وقوله: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾، البقرة: 127.

[2]- في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾، يونس: 87.

[3]- السرطاوي: ص30.

[4]- النجار: ص184.

[5]- الجاثية: 13.

يدفعه النجاح في إعمار الأرض أو سعيه إليه إلى التصرف ضد إرادة الله، لأن أمما سابقة فعلت هذا وكانت أكثر قوة ونجاحا ولكنها اندثرت، لأنها لم تعتصم بأوامر الله، ولم تنته عما حرم عليها، وفي هذا يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (9) ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ (10) اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[1]، وليس هناك من معنى للأرض هنا سوى أنها البيئة التي حدثت فيها هذه الوقائع.

- القرآن الكريم وصف الأرض بعدة أوصاف تدل على أنها منزل الإنسان إلى حين، والبيئة -كما تبين لنا- هي المنزل في اللغة، حيث وردت الأرض بهذا المعنى في آيات عديدة منها قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾[2]، والمهد هو الفراش والقرار الذي يُستقر عليه[3]، والأرض مستقر إلى حين بصريح الكتاب الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾[4]، وهي مهاد وفراش وبساط وقرار، وهذه كلها أوصاف للأرض تدل على أنها المكان الذي هيأه الله ليعيش عليه الإنسان فترة من الزمن، وفي هذا يقول تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا﴾[5]، ويقول: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾[6]، ويقول: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا﴾[7].

---

[1]- الروم: 9-11.

[2]- طه: 53.

[3]- القرطبي: ج11، ص128، الطبري: ج24، ص152، ابن عاشور: ج31، ص14.

[4]- البقرة: 36، والأعراف: 24.

[5]- النبأ: 6.

[6]- البقرة: 22.

[7]- نوح: 19.

والملاحظ أن القرآن الكريم يستخدم لام الإضافة التي بمعنى الاختصاص في كثير من المواضع التي تذكر فيها كلمة الأرض، فقد وردت معرَّفة في كل ما سبق من الآيات التي وّصفت فيها الأرض بالمهد والمستقر والذلول والفراش والبساط والقرار، كما وردت كذلك في الآية الجامعة لكل ما في الأرض، وهي قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[1]، في إشارة واضحة إلى أن الأرض وما فيها من مكونات وما عليها من كائنات قد خلقت لمنفعة الإنسان، مما يناسب كونها مسكنه ومنزله إلى حين[2].

- استخدام ألفاظ في القرآن الكريم ذات دلالة واضحة على مهمة الإنسان التي هُيأ لها على هذه الأرض، التي هي منزله، مثل مكّن- سخّر- استقر- خليفة، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾[3]، والتمكين إن حُمِل على ظاهره فمعناه جعلنا لكم فيها مكاناً وسُكنى وقراراً، ويجوز أن يكنى به عن أقدرناكم على التصرف فيها بالملك أو الزراعة وأسباب العيش[4]، وكلا التفسيرين يُجلي معنى كون الأرض بيئة الإنسان ومنزله، كما أن الفعل سخّر الذي بمعنى ذلل[5] يؤكد معنى التمكين في الأرض، بتذليل المكونات فيها لخدمة الإنسان، وغالباً ما تقترن كلمة الأرض بالسموات في موضوع التسخير، في إشارة إلى سعة المجال الذي هيأه الله للإنسان ليمارس فيه دور الخلافة، قال جل وعلا: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾[6]، وقال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾[7]،أي خلق ذلك لمنفعتكم.

---

[1]- البقرة: 29.

[2]- ابن عاشور: ج1، ص378،

[3]- الأعراف: 10.

[4]- القرطبي: ج7، ص152، ابن كثير: ج3، ص391، ابن عاشور: ج3، ص34.

[5]- ابن منظور: ج7، ص145، الفيروزآبادي: ج1، ص378، ابن زكريا: ج3، ص144.

[6]- لقمان: 20.

[7]- الجاثية: 13.

وبعد التمكين والتسخير تأتي مهمة الإنسان في عمارة هذه الأرض، والتي يعبر عنها القرآن الكريم بكلمة استعمركم، كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[1]، أي جعلكم عُماراً تعمرونها وتستغلونها[2]، وتعمير الأرض لن يكون إلا بإبقاء الصالح فيها على صلاحه وعدم إفساده، وبإصلاح ما فسد منها وفيها وزيادة صلاح ما هو صالح منها، ويعبر عن هذه المهمة أيضا في المصطلح القرآني بلفظ الاستخلاف، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[3]، والخليفة في الأرض هو من استخلِف في عمارتها وسياسة الناس وتنفيذ أوامره تعالى فيهم، وهو آدم عليه السلام، في قول بعض أهل التفسير، وفي قول بعضهم الآخر هو آدم وذريته، لأنهم يخلف بعضهم بعضاً[4].

وعلى أي من الوجهين من التفسير حُمل المعنى فالآية واضحة الدلالة على بيان مهمة الإنسان على هذا الكوكب، وهي عمارته وإقامة حكم الله فيه، فالخلافة تقتضي إقامة الحق والعدل وعدم اتباع الهوى، قال تعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾[5]،وتستلزم بالطبيعة والتبعية التعامل مع البيئة، باعتبارها نعمة من الله، سخرها للإنسان ليستخدمها فيما خلقت له، ويستمتع بها في حدود حاجته من غير إسراف ولا تقتير[6]، قال تعالى:﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي

1- هود: 61.

2- ابن كثير: ج4، ص332.

3- البقرة: 30.

4- الألوسي: ج1، ص221.

5- سورة ص: 26.

6- واليقين بهذه الحقيقة التي تضبط علاقة الإنسان بالكون وما فيه باعتباره مجرد خليفة في الأرض ووصيا عليها وليس مالكا لها، يحرره من الخوف من الظواهر الطبيعية، لقناعته بأنه خُلِق لعبادة الله جل وعلا، وأن كل ما في الكون مسخر له، ليحقق هذه الغاية، ولهذا ضل كل من انحرف عن هذه الحقيقة، كونها قوام الإيمان، فعبد بعضهم الشمس أو القمر أو الكواكب أو النار، وقرب لها وللأنهار والرعد والبرق القرابين، لخوفه منه، وجهله بحقيقة خلقه، وضل غيرهم فظنوا أنهم قهروا الطبيعة، وصاروا سادة لا حاجة بهم لإله يعبدونه، فكشف الإسلام زيف كل هذه الضلالات، وحدد في آيات بينات واضحات أن ما في الكون من مظاهر وظواهر هو دليل على قدرة المولى، وأنه مادة للتذكر والتدبر، وأنه كله مسخر لنفع البشر، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ

السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾[1]، فالاستخلاف يعني أن الإنسان وصي على الأرض مؤتمن عليها وليس مالكا لها يستبد بها كيفما يشاء، بل عليه أن يحافظ على هذه الأرض ويعمل فيها بحسب أحكام شرع من استخلفه فيها[2].

- كثيرة هي الآيات القرآنية التي جاءت تنهى عن الفساد، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾[3]، وكان محل النهي هو الأرض، والنهي عن الفساد في هذا الكوكب دليل على أن الأرض ينبغي أن تظل سليمة معافاة من كل علة ومرض، لأنها المحيط الذي يعيش فيه الإنسان، وبه قوام حياته.

- مما يدعم القول بأن البيئة هي الأرض أن علماء الفلك عندما يبحثون عن الحياة في كوكب أو عوالم أخرى يستدلون على ذلك بما يشير إلى وجود الماء في حاضر أو ماضي تلك الكواكب، والماء لم يثبت وجوده إلا في الأرض، قال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى﴾[4]، فإن لم يكن هناك ماءً فلا حياة، ومن ثم لا تلوث ولا فساد، وحتى عندما صعد الرواد إلى الفضاء الخارجي للأرض انتقلوا في مركبات تحوي ظروفا تماثل إلى حد كبير ما هو على الأرض، لأن ظروف تلك المواقع التي وصلتها تلك المركبات لا تناسب الحياة البشرية، ولو كانت الحياة ممكنة على غير الأرض لكان هو أيضا بيئة للإنسان[5]، فلا بيئة للإنسان إذا إلا الأرض، وهذا ما يمكن تبينه من قوله جلت قدرته: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً

لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾، النحل: 12-13.

[1]- لقمان: 20.

[2]- ضاهر: 12.

[3]- الأعراف: 56.

[4]- طه: 53.

[5]- النجار: ص196.

أُخْرَى﴾[1]، فمنها خُلق الإنسان، وعليها وفيها يحيا ويمارس دوره، وفي باطنها يُقبر ويُوارى جثمانه بعد أن يقضي أجله المقدر له[2].

وعلى ضوء ما سبق يمكننا أن نستنتج أن البيئة في الاصطلاح الشرعي هي الأرض وما يتصل بها من مكونات ويؤثر فيها، كونها منزل الإنسان إلى حين، وهي تشمل البر والبحر والجو، وهي لا تقتصر على ما هو مشاهد منها من مكونات، بل تتعداه إلى ما هو غائب، لأن الله سمى الجنة في القرآن أرضاً، عندما قال سبحانه: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾[3]، وعلمُنا قاصر عن بيان كنهها، إذ لا نعلم عنها إلا ما أخبرتنا به نصوص الكتاب والسنة المطهرة، وبذلك تشمل البيئة في الإسلام عالمي الشهادة والغيب وما فيهما[4]، والتعبير عن المحيط الذي يعيش فيه الإنسان بأنه الأرض أدق وأكثر تحديدا للمعنى الاصطلاحي المراد بالبيئة، لاسيما الطبيعية[5].

المبحث الثاني

الفساد في الأرض

مع أن مصطلح البيئة ومصطلح التلوث عربيان صحيحان، لكنهما لم يردا في الكتابات الفقهية القديمة، فالرائج في الاصطلاح الشرعي، وفق ما يمكن تلمسه من النصوص، هو مصطلح الفساد في الأرض، ولكن الأمر لا يقف عند الخلاف الاصطلاحي بل سنرى أنه ينسحب على أحكام الموضوع ودقائقه، ولهذا فالمقام يقتضي بيان مفهوم الفساد لغة وشرعاً وضابطه الشرعي، كي يتبين لنا سبب تفضيله لضبط أحكام موضوع "التلوث البيئي".

---

[1]- طه: 55.

[2]- القرطبي: ج11، ص129، الزمخشري: ج4، ص88، ابن عطية: ج6، 102.

[3]- الزمر: 74.

[4]- جيرة: ص42-43.

[5]- غانم: ص13-14.

مفهوم الفساد:

تندرج المشكلة البيئية في الاصطلاح القرآني تحت لفظ الفساد، والذي يجمع تحته ما تعورف عليه في عصرنا بالتلوث البيئي، حيث استخدم الكتاب الكريم هذا اللفظ في كثير من الآيات الدالة على خروج الإنسان عن منهج الله في عمارة الأرض، بل عن الإيمان بالله وعن دعوة الحق[1]، وقد أتت هذه الآيات الكريمة في سياق النهي الصريح عن الفساد أو التنفير منه، وإعلان إخراج المفسدين من دائرة الحب الإلهي، أو حكاية حال المفسدين وما حل بهم من عقاب وأهوال وسوء منقلب[2]، كي يأخذ منهم غيرهم العبرة والعظة، فيرعوي عن فعله، ويردع نفسه، حتى لا يحيق به ذات المصير.

وهنا نلاحظ الفارق الواضح بين الفكر الوضعي والفكر الإسلامي، فالفكر الوضعي ينشغل كعادته بالماديات بعكس الفكر الإسلامي الذي يبرز دور العقيدة والروح في الإصلاح، ولهذا كانت حماية البيئة من الفساد عبادة في الشريعة الإسلامية، والتفريط فيها تفريط في جزء من الدين، واحتراما للقانون، أو بتعبير أدق خشية من عقابه، في الفكر الوضعي، فالمرء يأتي الفعل الصالح طواعية وعن رضا وقناعة شرعا، ويأتيه بدافع المصلحة المادية الآنية أو مكرها

---

[1]- ولهذا نلحظ أن لفظ الماء بصيغه المختلفة لما ورد 63 مرة في القرآن الكريم كان أكثر من ثلثيها في سور مكية، مع أن غاية القرآن المكي الدعوة إلى العقيدة والتوحيد، وليس بيان الأحكام العملية التفصيلية، وما ذاك إلا لتوعية الإنسان، ولو كان غير مسلم، وتوجيه نظره إلى هذه النعمة، وتذكيره بوجوب الحفاظ عليها دون تلويث أو إسراف، وحثه على إعمال عقله وقلبه في النظر في البراهين التي تنطق بها هذه الآيات الدالة على وجود الله، وإثبات عظم قدرته وكمال صنعه، فكان في الحفاظ على الماء نقيا من التلوث جانب روحي إيماني مرتبط بالتوحيد، ففي حفظه حفظ للعقيدة، وفي إفساده إفساد لها أو خدش لجوهرها. عمر: ص22.

[2]- الإسلام لم يهتم فقط بالبيئة بمفهومها الواسع ومواردها الحية وغير الحية، ويُظهر أسس التعامل معها، بحيث يمكن صيانتها والحفاظ عليها، بل زاد على ذلك قيمة إضافية، وهي ربط الحفاظ عليها وحمايتها بالأجر والثواب في الآخرة، وهذا لاشك من أهم الدوافع الذاتية للالتزام بالأوامر الإلهية، ولهذا نلحظ أن الآيات القرآنية التي نهت عن الفساد في الأرض ربطت النهي دائما بالجزاء الأخروي، مما يزيد من قوة تأثير الآيات في نفوس الأفراد وأعمالهم، فيكون المردود في الدنيا بالحفاظ على البيئة والنأي عن موارد إحداث الفساد، وفي الآخرة بالثواب العظيم والأجر الجزيل، هنانو: ص2-4، ومن هذا قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ البقرة: 27، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾، الرعد: 25، وقوله: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (22) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾، سورة محمد: 22-23.

أو خائفا من عقاب القانون، وهذا الفارق له دوره في الإصلاح والردع والسمو بالإنسان، ويمكن أن نلمسه من خلال دعوة القرآن إلى النظر في مصائر السابقين والاهتداء بما حل بهم من عقاب، كونهم تصرفوا ضد إرادة الله، فعوقبوا مع أنهم كانوا أكثر قوة، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[1].

وقد تنوعت عبارات المفسرين في بيان معنى الفساد، حيث ذكروا أن:

- سبب الفساد هو الشرك، كما في قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[2]، والفساد الذي ظهر في البر والبحر هو خوف الطوفان فيهما، وعدم إنبات بعض الأراضي، وتعاظم ملوحة مياه البحار، وقلة مياه العيون والآبار، ومحق البركات من كل شيء وقلة المنافع في الجملة وكثرة المضار[3]، وهذا ما يعبر عنه اليوم بخلل التوازن البيئي وبالتلوث[4].

- الفساد هو إظهار عصيان الله والمجاهرة بذلك، من قطع الطريق والظلم وغيرهما من الآثام والشرور[5].

- الفساد يحتمل وجهين، أحدهما إتلاف الأموال بالتخريب والتحريق والنهب، وعلى هذا الوجه يُحمل ما فعله الأخنس بن شريق لما أظهر للرسول ﷺ أنه يحبه، وأنه على عزم أن يؤمن، فلما خرج من عنده مرَّ بزرع للمسلمين، فأحرقه وقتل الحُمُر[6]، والوجه الثاني للفساد

---

[1]- الروم: 9.

[2]- الأنبياء: 22.

[3]- القرطبي: ج14، ص39، الألوسي: ج21، ص48.

[4]- مروة: ص240.

[5]- الألوسي: ج21، ص49.

[6]- القرطبي: ج3، ص16.

هو إدخال الشُبَه في قلوب المؤمنين، واستخراج الحيل في تقوية الكفر، كما في قوله تعالى حكاية عن قوم فرعون حين قالوا له: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾[1]، أي يردوا قومك عن دينهم، ويفسدوا عليهم شريعتهم، ويتركوا عبادتك وآلهتك[2].

- جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾[3]، أي لا تغوِّروا الماء المعين، بأن تدفنوا المياه وتسدوا منافعها، ولا تقطعوا الشجر المثمر بقصد الإضرار[4]، وكأنه يريد بذلك العبث بموارد البيئة[5].

- قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾، "معناه لا تفسدوا شيئاً في الأرض، فيدخل فيه المنع من إفساد النفوس بالقتل وبقطع الأعضاء، وإفساد الأموال بالغصب والسرقة ووجوه الحيل، وإفساد الأديان بالكفر والبدعة، وإفساد الأنساب بسبب الإقدام على اللواطة والزنا وبسبب القذف، وإفساد العقول بسبب شرب المسكرات"[6].

ويبدو واضحاً أن عموم الفساد يشمل كل ما ذكره أهل التفسير من السابقين والمعاصرين، وفي هذا يقول العلامة الألوسي عند بيانه لمعنى قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾[7]: "حكم الآية عام في كل فساد يظهر إلى يوم القيامة، ومن هنا قيل: من أذنب ذنباً يكون جميع الخلائق من الإنس والدواب والوحوش والطيور والذر

---

[1]- الأعراف: 127.

[2]- الطبري: ج13، ص37، الزمخشري: ج2، 492، ابن عطية: ج4، ص23.

[3]- الأعراف: 56.

[4]- القرطبي: ج7، ص205.

[5]- مروة: ص241.

[6]- الفخر الرازي: ج14، ص139.

[7]- الروم: 41.

خصماءه يوم القيامة، لأنه تعالى يمنع المطر بشؤم المعصية، فيتضرر بذلك أهل البر والبحر جميعاً"[1].

وبذلك فالفساد في الآيات الكريمة السابق ذكرها يشمل أيضاً كل ما أحدثه الإنسان من خلل في البيئة من تلويث لها واستنزاف لمواردها في البر والبحر والجو، وتعطيل لهذه الموارد، وتحويل لها عن أداء دورها إلى غيره مما هو جالب للضرر، أو تغيير له، فهذا كله فساد، لأن فيه خروجاً عن حد الاعتدال والاستقامة، وبذا يمكن تعريف الفساد بأنه "كل اضطراب أو خلل يصيب الشيء فيغيره عن طبيعته أو خواصه ويجعله غير صالح لأداء وظيفته"[2]، وبهذا يكون تعبير القرآن الكريم بالفساد في الأرض أعم وأشمل من تعبير الاعتداء على البيئة أو تلوثها، وأدق من الناحية اللغوية والفنية، وفي هذا تأكيد على الاعجاز اللغوي للقرآن الكريم[3].

وبناء على ما سبق يظهر لنا تفضيل العلماء لمصطلح الفساد الوارد في آيات قرآنية عديدة، لأنه أكثر دلالة على المعنى المطلوب التعبير عنه، ولعل أقربها للدلالة على المعنى المراد في هذا البحث قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[4].

وبالرجوع لكتب التفسير يظهر لنا أن الفساد أريد به في هذه الآية على وجه الخصوص معاني عدة، فهو الجدب والقحط وقلة الريع في الزراعات والربح في التجارات ووقوع الموتان في الناس والدواب وكثرة الحرق والغرق وإخفاق الصيادين ومحق البركات من كل شيء وقلة المنافع في الجملة وكثرة المضار وانقطاع المطر أو قلته وهلاك دواب البحر[5]، وسبب هذا

---

[1]- الألوسي: ج21، ص49.

[2]- أبو الليل: ص13، سلامة: ص16.

[3]- السدلان: ص22.

[4]- الروم: 41.

[5]- الزمخشري: ج4، ص582.

كله ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾، أي أن هذا الفساد بصوره كلها لم يكن موجوداً، لأنه ليس من طبيعة الأشياء، بل الحال المعتاد في هذا الكون هو الصلاح، ولكن لما أحدث الناس أسباباً واكتسبوا أفعالاً نجم عن ذلك أمرين: أولهما ارتكابهم للمعاصي والذنوب، وثانيهما ضيق في العيش، فبان من هذا أن الأسباب المؤدية للفساد والمنتجة له لا تكون إلا أفعالاً غير مشروعة، فالمباحات إذا روعيت فيها متطلبات الحيطة والسلامة، والمندوبات، ومن باب أولى الواجبات، لا يترتب عليها إلا صلاح، والتضييق في العيش وحدوث الفواجع والأهوال والمصائب واختلال نظام الكون هو في ذاته عقوبة تلحق مقترفي هذه المعاصي، التي قاموا بها إفساداً في البر والبحر، والحال بعد حلول الفساد لن يعود لسابق عهده إلا إذا تم العدول عن مقارفة هذه الذنوب، وهذا ما نلمسه من قوله تعالى في ختام الآية:﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، أي يتوبون ويرجعون عن أعمالهم الخبيثة، ويرجع كذلك من بعْدَهم معتبرا بما حل بهم من عقاب[1].

فالإفساد في الأرض وإهلاك الحرث والزرع خُلق الجبارين وصنيع المجرمين الذين لم يخالط الإيمان قلوبهم، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾[2]، قال مجاهد: "المراد أن الظالم يفسد في الأرض، فيمسك الله المطر، فيهلَك الحرث والنسل"، ويؤكد هذا حديث أبي قتادة ﷺ أن النبي ﷺ قال: "العبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب"[3]، قال النووي تعليقا على هذا الحديث: "استراحة العباد من الفاجر معناه اندفاع أذاه عنهم، وأذاه يكون من وجوه منها ظلمه لهم، ومنها ارتكابه المنكرات، فإن أنكروها قاسوا مشقة من ذلك، وربما نالهم ضرره، وإن سكتوا عنه أثموا، واستراحة الدواب منه كذلك، لأنه كان يؤذيها ويضربها

---

[1]- القرطبي: ج14، ص39، البغوي: ج6، ص274، الزمخشري: ج4، ص582.

[2]- البقرة: 205.

[3]- صحيح البخاري: كتاب الرقاق، باب سكرات الموت، حديث رقم 6512، صحيح مسلم: كتاب الجنائز، باب ما جاء في مستريح ومستراح منه، حديث رقم 1585.

ويحمِّلها ما لا تطيقه ويجيعها في بعض الأوقات وغير ذلك، واستراحة البلاد والشجر فقيل لأنها تُمنع القطر بمعصيته"[1].

خصائص الفساد في الأرض:

بنظرة فاحصة يمكننا استفادة جملة من المعاني والأحكام، وتلمس بعض الحِكم والأسرار من ظاهر الآية الكريمة السابقة، تكشف لنا عن خصائص الفساد في الأرض، والتي من أهمها:

- إفساد البيئة هو نقيض صلاحها، فالقحط والجدب ظهر في البر وكذلك في البحر، ومؤدى هذا أن منع الفساد عن الأرض أصبح أمرا مرتبطا بحياة الإنسان الذي يعيش على هذه الموارد، وتتحقق المحافظة على هذه الموارد بحسن استغلالها وعدم الإسراف عند استعمالها أو استنزافها[2].

وعند التحقيق نتبين أن الصلاح الوارد في القرآن الكريم غالبا ما يرد في مقابلة الفساد، الذي هو ذاته أكثر الأعراض الطارئة التي تلوث الأرض، ومن هذا قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام في خطابه لأخيه هارون: ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾[4].

- يمكن أن نستشف من هذه الآية لزوم حدوث تغيير في البيئة المائية والبرية، ونشوء حالة من اختلال التوازن فيها، ذلك التوازن الفطري الذي خلقت عليه من لدن المولى جل وعلا، والكفيل لها بأداء وظيفتها[5]، فالفساد واقع لا محالة، بسبب وجود الإنسان على هذه

1- النووي: ج7، ص29.

2- النجار: ص182.

3- الأعراف: 142.

4- النمل: 48.

5- عيسى: ص26.

الأرض، وإن كان هذا لا يعني الاستسلام لنتائجه، فسبل الحد منه ومنعه ومكافحته مقررة شرعا، ومبينة في الفروع الفقهية.

- الفساد ظهر في البر والبحر، وهذا هو التلوث البيئي عينه، كون التلوث مجرد صورة من صور الفساد، ولنلحظ هنا الترابط بين ذكر البر وذكر البحر، وكأنه سبحانه يشير إلى وحدة هذا الكون بعناصره كافة، لينبهنا إلى أن ما يحدث في البر ستكون له انعكاساته على البيئة البحرية، والعكس بالعكس، فواو العطف التي ربطت في الآية بين البر والبحر تفيد الاشتراك في الحكم، فصار معنى الآية أن الفساد لا يمكن أن يقتصر وقوعه على البر فقط، أو البحر فقط، وحتى لو تصورنا ذلك عقلا، فإنه لا يقع حقيقة، فالفساد إن حدث في أحدهما فسيستتبع ذلك وقوعه في الآخر منهما، لأن الربط بين البر والبحر في الآية بحرف العطف "و" يفيد الاشتراك في الحكم، فالفساد ظهر في كليهما، ومع أن العطف بالواو لا يفيد الترتيب في الأصل، ولكن يمكننا أن نستشف من الآية وبحكم الواقع أن الفساد ظهر في البر أولا ثم انتقل منه إلى البحر، كون وجود الإنسان في البر أسبق وأكثر منه في البحر[1]، ولهذا نلاحظ أن القرآن تحدث في آية أخرى عن الضرر الذي يلحق البلد ببره وبحره ومائه، فقال تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾[2]، فالآية تكلمت عن البلد الطيب، والمراد به البلد الصالح التربة العذب الماء، أي الذي لم يلحق التلوث لا ماءه ولا تربته، ثم تحدثت عن الخبث، وهو فساد التربة وعقمها وعدم قدرتها على الإنبات إلا نكدا، أي بمشقة وصعوبة[3]، ولاشك أن فساد التربة يلحق ما يمر بها من ماء، فملوحة التربة تؤدي إلى ملوحة الماء، والآية بربطها بين البر والبحر في حدوث الفساد تلمح لنا إلى وحدة هذا

---

[1]- الزحيلي: ص4.

[2]- الأعراف: 58.

[3]- سلامة: ص21. والآية بهذا تلفت نظرنا إلى التفاوت في أنواع الأراضي، فهناك أرض وتربة طيبة، تخرج نباتها بسرعة وثمارها بهيجة ناضرة، وهناك أرض خبيثة جرداء، لا تخرج إلا نباتا ضعيفا غير نافع، وفي الآية إشارة إلى تجنب كل ما يؤدي إلى إفساد الأرض، لأن في ذلك إفساد للحياة النباتية. ضاهر: ص54.

الكون، وأن ما يحدث في جانب منه يطال ضرره بقية جوانبه، فقد يكون سبب الفساد واقعا في البر والضرر يقع في البحر، وقد يقع العكس، فلا رابط بين محل وقوع سبب الفساد وبين محل تحقق آثار الفساد، وهذا ما أثبته العلم الحديث بملاحظته لما يدور في الكون، فقد وجدت حديثا بأجسام الدب القطبي وطائر البطريق نسبة ملحوظة من مادة الزئبق، رغم أنها حيوانات تعيش فقط في المنطقة القطبية، ولا تغادرها البتة، وهذه منطقة بعيدة عن مصادر التلوث بالزئبق، والذي ينتج غالبا عن أنشطة صناعية لوحظ عدم تواجدها في مناطق معيشة تلك الحيوانات، ولكن تنقّل تلك الملوثات من جسم لآخر هو ما نقلها إليها، سواء عن طريق البحر، أو ما تتغذى عليه من أسماك، أو بواسطة وسائل النقل التي تجوب البحار[1].

- الآية استعملت كلمة "ظهر" بصيغة الماضي، لتدل على الاستمرار، فهي تقرر أنه كلما اكتسبت الأفعال المؤدية إلى الفساد والمنتجة له كلما ظهر ذلك الفساد بالتبعية، فاستخدام الآية الزمن الماضي لم يكن لحكاية ما كان في الأزمنة الغابرة، بل لتقرير حقيقة لا تقبل الجدل، ولا تحتاج إلى كبير عناء للبرهنة على صدقها، لأن الواقع يؤكدها، والفعل في زمنه الماضي أكثر دلالة على هذا المعنى.

- استعمال كلمة تلوث أو تلويث يوحي بحداثة هذه الظاهرة، مع أن هذا خلاف الحقيقة والواقع، فالفساد في الأرض ظهر منذ اللحظة الأولى التي تدخل فيها الإنسان في توازن الطبيعة، فمنذ ظهوره على ظهر البسيطة يمكن القول أنه لوثها، وإن كانت نسبة الفساد وآثاره فيما مضى محدودة جدا لدرجة الانعدام، ولكن مع التطور التقني الهائل وازدياد كثافة السكان بشكل ملحوظ ارتفعت نسبة التلوث وعم الفساد واستفحل خطره بوتيرة مرعبة، وصار يهدد العديد من الأصناف الحيوانية والنباتية، بل إن استمرار الحياة على كوكبنا ذاته صار مهددا بما

---

[1]- إسلام: ص106.

في ذلك حياة الإنسان نفسه[1]، ولهذا نلحظ أن الاهتمام بالتلوث البيئي لم يعنى به الفكر الوضعي إلا حديثا، بينما لم يهمل الإسلام معالجة موضوع الفساد في الأرض منذ انبلاجه، فالمكان والزمان والشراب والطعام واللباس والعلاقات الاجتماعية والخدمات على اختلاف أنواعها عالجها الإسلام بما يحفظ لأتباعه السلامة في الدنيا والآخرة، وهذا ما تشير إليه الفروع الفقهية في أبواب الطهارة والمعاملات كافة، ويشير إليه أيضا قوله ﷺ: "من أصبح منكم آمنا في سربه، معافى في جسده، عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا"[2].

- المقترف لمعصية الفساد وتلويثه البيئة عبرت عنه الآية بلفظ الناس، ولفظ الناس في العربية –كما نعلم- جمع لا مفرد له، وهذا يفيد أن الفساد فعل الجماعة لا الواحد، ففعل الواحد مهما عظُم لا يسمى فسادا، فالتلوث جريمة -إن جاز لنا أن نقول ذلك- يرتكبها المجتمع كله، فيتعاون أفراده في اقترافها، أو على الأقل فئة كبيرة منهم، ولكن ليس معنى هذا أن الفساد ليتحقق لابد أن يشارك الكل في احداثه بنفس القدر، ففعل الواحد أو الفئة القليلة قد يعد فساداً إن تواطأ الكافة على غض الطرف عنهم، أو قاموا بامتداح صنيعهم، أو نكصوا عن نهيهم عن هذا المنكر الذي قارفوه، فينسب عندئذ الفعل للكافة على وجه التسبب لا المباشرة، ويتقرر أن الواحد أو الفئة القليلة ما كانت الجرأة تصل بهم إلى مقارفة ما اقترفوه أو التمادي في ما صدر عنهم إلا بسكوت الكافة عنهم[3]، وطالما أن الفساد فعل الكافة، وهو لن يكون إلا إذا اتخذوا

---

[1]- حمود: ص170.

[2]- سنن الترمذي: كتاب الزهد، باب التوكل على الله، حديث رقم 2346.

[3]- الفساد حتى وإن كان منشؤه فرديا فإنه يؤول إلى أن يكون جماعيا، حيث يبدأ في القوم صغيرا، يمارسه قلة منهم، ويتواطأ معهم غيرهم بسكوتهم على ما يقوم به بعضهم، وغضهم طرفهم عما يعلمونه ويرونه من معاص يقترفونها، ويتجاهلون الضرب على يد هذه القلة الفاسدة، التي تمارسه خفية، ولكن بعلم الكثرة، فيزداد الفاسدون جرأة ومجاهرة بأفعالهم، بل تصبح لهم قوة وشوكة، فيجتمعون على اضطهاد معارضيهم، واصمينهم بالجهل والرجعية والتربص برفاهيتهم، غيرة منهم وحسدا لهم، وقد ضرب لنا سبحانه وتعالى مثلا لهذا الفساد الجماعي بقرية أهلكتها ذنوب أهلها، لما رفضوا دعوة الحق واتباع الرسل، فعصوهم وكذبوهم، فكان مصيرهم ما نعلم من سوء العاقبة والمنقلب، فقد كان قوم لوط ذوي ثراء فاحش، فعاشوا حياة ترف وبذخ وانغماس في الشهوات، حتى أصابهم الملل منها، فانطلقوا يبحثون عن جديد غيرها، مما يشبع أهواءهم وشهواتهم، ويرضي نزقهم، فوجدوه في إتيان الغلمان، ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾الشعراء: 165، ثم ازداد فسادهم اتساعا فأضافوا الرجال إلى الغلمان، ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ

من الفعل المشكِّل له سلوكا درجت عليه حياتهم، بتكرارهم وإلفهم له، فالعلاج يكون كذلك جماعيا، فالمسئولية عن الفساد جماعية والعلاج كذلك، فالفساد قبل كل شيء، وقبل أن يكون مشكلة مادية، هو مشكلة سلوكية أخلاقية روحية بحتة[1]، فبغي الإنسان في الأرض، وجهله بنواميس الكون التي سنها الله، وخروجه على مقتضيات المهمة التي أناطها الخالق به عندما استخلفه في الأرض، وأوكل إليه عمارتها، كلها عوامل يكمن خلفها الأسباب الجوهرية للفساد في الأرض[2]، فسلوك الإنسان ثمرة لاعتقاده، فمن كان معتقده سليما أنتج سلوكا صحيحا، وبالتالي كان تأثيره في محيطه إيجابيا، ومن كان معتقده فاسدا أنتج سلوكا فاسدا مثله، وبالتالي أثر في محيطه تأثيرا سلبيا ضارا[3]، وبسوء الأعمال تسوء الأحوال، وتنتشر العلل والبلايا، ويؤكد هذا قوله ﷺ: "يا معشر المهاجرين، خمس خصال إذا ابتليتم بهن، وأعوذ بالله أن تدركوهن، لم تظهر الفاحشة في قوم قط، حتى يعلنوا بها، إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أُخِذوا بالسنين وشدة المئونة وجوْر السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا مُنِعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط الله عليهم عدوا من غيرهم، فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله، ويتخيروا مما أنزل الله إلا جعل الله

النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾الأعراف: 81، وبعد أن كانوا يمارسون الفاحشة سرا صاروا يمارسونها جهرة، ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (54) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾النمل: 54-55، وانتهى بهم الحال أن مارسوا الفاحشة علنا في أنديتهم متباهين بذلك الفساد، ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ العنكبوت: 29.

[1]- دربي: ص11، إسلام: ص42.

[2]- سلامة: ص13.

[3]- ضاهر: ص7، إسلام: ص43.

بأسهم بينهم"[1]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آَمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[2].

وبذا يظهر لنا أن عوامل الفساد فوق أنها مستحدثة من صنع الإنسان لم تنشأ في يوم وليلة، بل بدأت في الظهور تدريجيا، وبمقدار تدخل الإنسان في تعديل محيطه، وهذا يدل على أن الفساد مسألة سلوكية، حيث ظل أثر هذه العوامل يتراكم على مر السنين دون أن يلاحظه أحد حتى ظهر تأثيرها واضحا، وبان خطرها جليا بعد النصف الثاني من القرن العشرين، حين شعر الإنسان بخطرها على حياته، وفطن إلى أثرها المدمر على محيطه الذي يعيش فيه[3]، ولذا فالعلاج لا يكون إلا بتعديل هذا السلوك، واكتساب قيم إيجابية، تدعو للصلاح العام، وتقدمه على المصالح الخاصة[4]، فيحاصر الفساد أدبيا قبل أن يحاصر ماديا، فإخلال نفر بالتوازن البيئي، وسكوت غيرهم عنهم، يعني ضمنا مشاركتهم لهم في الجريمة التي ما كانت لتقع لولا نكوص الكثرة عن نهيهم، ولذا فالضرر يحيق بالكثرة، والعلاج لا يكون إلا بعودتهم إلى جادة الصواب بقيامهم بدورهم –كل حسب قدرته- في إصلاح مجتمعهم، فالحياة مسئولية جماعية، إذا أخل بها نفر سرى الضرر إلى الباقين.

فالطبيعة من حولنا بشمسها وقمرها، وليلها ونهارها، وبحارها وصحاريها لا مشكلة تأتينا منها، ولا خطر علينا منها في ذاتها، إنما المشكلة تنبع من صلة الإنسان بها، ونظرته إليها، وتصرفه فيها، وتعامله معها، فإذا أصلحنا الإنسان صلحت الحياة كلها من حوله،

---

[1]- سنن ابن ماجه: كتاب الفتن، باب العقوبات، حديث رقم 4019. فالنبيﷺ حرص على ذكر أسباب الفساد وبيان نتائجه، منذرا المجتمع بالتدهور، بل ربما بالهلاك، إذا عمه الفساد، فكان في هذا تقرير أن الضمانة لبقاء المجتمع واطمئنان أفراده على حياتهم وشئونهم هي محاربة الفساد. السويدي: ص10.

[2]- الأعراف: 96.

[3]- إسلام: ص20.

[4]- حمشة: ص8، إسلام: ص43.

وبصلاح البيئة ينصلح حال الإنسان[1]، وإصلاح الإنسان يكون من داخله لا من خارجه، ومن باطنه لا من ظاهره، ومن نفسه التي بين جنبيه لا من غلافه البدني، وهذه سنة ثابتة قررها القرآن الكريم حين قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[2].

وجدير أن نلاحظ أن لفظ الناس بعمومه يشمل المسلم وغيره، فالمنع من الفساد والحفاظ على البيئة نقية من التلوث الخطاب فيه موجه للجميع بصرف النظر عن توحيدهم وكفرهم، لأن المسلم حينما يتعامل مع موارد الكون لا يتصرف في عزلة عن غيره غير المسلم، بل عليه شرعا أن يراعي حق هذا الأخير في أن ينتفع –رغم كفره- بنعم الله في الأرض، ولأن الإفساد في أي جزء من الأرض لا يلبث أن يُحدث أثره في بقيتها إن عاجلا أو آجلا[3]، فالخليفة في الأرض هو الإنسان، بغض النظر عن كونه مسلما أم غير المسلم، فالأرض، بما عليها وفيها، مسخرة للإنسان بصفته إنسانا، بغض النظر عن دينه وجنسه ومذهبه ولونه، فجميع الناس شركاء في الانتفاع بمصادر الثروة من سماء وأرض وما بينهما[4]، وكفر المرء لا ينزع عنه وصف الاستخلاف[5]، ولهذا نجد أن الله كرم الإنسان دون النظر

---

[1]- لعل أفصح من يحدثنا عن الأثر المتبادل بين البيئة وسلوك الإنسان حديث الرجل الذي أسرف في القتل، ونصه أن النبي ﷺ قال: "كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعا وتسعين نفسا، فسأل عن أعلم أهل الأرض، فدُلّ على راهب، فأتاه، فقال أنه قتل تسعا وتسعين نفسا، فهل له من توبة؟ فقال: لا، فقتله، فكمّل به مائة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض، فدُلّ على رجل عالم، فقال أنه قتل مائة نفس فهل له من توبة؟ فقال: نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناسا يعبدون الله فأعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء". صحيح مسلم: كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل، حديث رقم 2766، صحيح البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، حديث رقم 3283، والظاهر من الحديث أن الرجل العالم نصح القاتل بالتحول من الأرض التي أصاب فيها المعاصي ربما لوجود من يعينه على ارتكابها، أو لكثرة هذه المفسدة فيها وانتشارها بين أهلها، وبيّن علة ذلك بقوله: إنها أرض سوء، أي أرض ينتشر فيها الفساد، فكان من الخير له التحول عنها إلى غيرها.

[2]- الرعد: 11.

[3]- النجار: ص193.

[4]- سلطان العلماء: 23، الجليند: ص2.

[5]- إذ لما كان لإعمار الأرض في الإسلام دوره في منع الفساد فقد كان الشرع لا يمانع في بقاء الأرض المفتوحة بأيدي أهلها من غير المسلمين على جزء من الخارج منها من محصول، فهذا ما فعله ﷺ مع أهل خيبر من اليهود، وفعله عمر ﷺ وصحابته في أرضي الشام والعراق وبلاد فارس بعد فتحها، وذلك لتعميرها، ولقدرة أهلها أكثر من الفاتحين على ذلك، لأن تقسيمها على الفاتحين لم يكن يعني سوى خرابها وترك زراعتها، أو عودتها لسابق ملكية غير المسلمين لها عند بيع الفاتحين لها. السرطاوي: ص63.

لعقيدته، فقال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آَدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[1]، ورزقه دون النظر لعقيدته، "فلو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها قطرة أبدا"[2]، وسخر له ما في الكون دون النظر لعقيدته، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾[3]، وقال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾[4]، ورغب تعالى الكافر في الإيمان به وإقامة دينه بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آَمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[5]، وذلك بأن تكفل له بإقامة معاشه وإصلاح شئونه، فقال تعالى: ﴿وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾[6]، وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾[7]، فكان بهذا في الفساد اعتداء على حق الإنسان في الحياة، وقبل هذا فيه كفر بنعم الله وتسخير لها في غير ما خلقت له من تحقيق غايات الاستخلاف في الأرض، وفيه بعد هذا اعتداء من إنسان على آخر وعلى حقوقه، وخصَّه بالغرم ليحظى هو بالغنيمة[8].

- الفساد لا يكون إلا بأفعال الناس، فالإنسان هو مصدر التلوث وأداته، وهو الجاني على نفسه بجنايته على البيئة[9]، فلا الحيوان ولا النبات ولا الطبيعة ذاتها ومكوناتها لها دخل في

1- الإسراء: 70.

2- هذا نص حديث نبوي شريف رواه ابن ماجه في كتاب الزهد، باب مثل الدنيا، حديث رقم 4110.

3- لقمان: 20.

4- الجاثية: 13.

5- الأعراف: 96.

6- الجن: 16.

7- المائدة: 66.

8- الجليند: ص20.

9- الزحيلي: ص2-3.

الإخلال بنظام الكون، فقد خلقت على نظام بديع متناسق[1]، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾[2]، فالتغيير في البيئة المعبر عنه بالفساد لا يمكن نسبته لغير الإنسان وأفعاله، فلولاها ما حدث، وهي المسئولة عن نتائجه من خراب واضطراب، وهذا ما يفيده حرف الباء في قوله تعالى: ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾، المقتضي لزوم السبب باقتران ما اقترفته أيدي الناس، كونها هي السبب لما يترتب على ذلك من آثار ونتائج، قال تعالى:﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾[3]، فصلاح الأرض مرهون بالإنسان، فإن صلح صلحت معه بيئته، وإن طغا وفجر وفسد فسدت معه بيئته[4]، فالفساد وما ينجم عنه من تلوث بيئي هو ثمرة لتدخل الإنسان وتعديه بالتعديل في خصائص الكون ومكوناته ونظام سيره بما يراه من أفعال محققة آنياً لمصالحه، أو بصورة أدق هو تدخل فئة من البشر في هذا الكون لتستغله لغرض أو أغراض مصلحية، دون النظر للمصلحة العامة للمجتمع الذي يعيشون فيه، ومن باب أولى لمصلحة المجتمع الإنساني ككل، فتحيد به عن تحقيق الصالح العام إلى تسخيره لصالحها هي، وبعبارة أدق ظهور الفساد في الأرض هو رد على عدوانية الإنسان على محيطه الذي سُخر لخدمته، واستنزافه لموارده،

---

[1]- ولهذا نلحظ أن المخلوقات خلقت بصورة لا تجعلها تفسد ذاتيا، بل هُيأت لها الأسباب التي تحول دون ذلك، فالغابة البكر لا يلحقها فساد، فهي تنظف نفسها بنفسها، فبعض ما بها من مخلوقات تنظف ما يحدثه غيرها من ملوثات، بل إنها تقتات عليه، ومياه البحار والمحيطات حفظها المولى من الفساد بإضافة الأملاح لها، والمياه العذبة حفظت بجريانها الدائم، سواء كان الماء معلقا في السحاب، أم صاعدا من الأرض في صورة بخار، أم نازلا من السماء إلى الأرض في صورة أمطار، أم منسابا على سطح الأرض في صورة أنهار، أم جاريا في جوف الأرض من محل لآخر، فكل هذه الحركة تمنع فساده وتزيل كدره وشوائبه وتجدد نقاوته، والحيوانات في الغابة عندما تموت تتحول أجسادها إلى تراب، تستخلص منه النباتات غذاءها، وتحوله إلى أوراق وثمار وبذور، يعتمد عليها الإنسان والطير والحيوان في غذائه، وتستمر عملية الموت والتحول والحياة بذات الوتيرة وفقا لما قدره الخالق لها، كما أن البحار لا تلوث فيها قبل تدخل الإنسان، فما يموت من سمك هو غذاء لغيره، إذ لا قمامة ولا نفايات في البحار إلا ما نتج عن فعل الإنسان.
عمر: ص25، الحريري: ص5.

[2]- آل عمران: 190.

[3]- النحل: 112.

[4]- السرطاوي: ص12.

وسوء استعماله لها، وارهاقه لها[1]، فردود الفعل بين الإنسان والبيئة متبادلة، سواء كانت حسنة أم سيئة، وعليه تحمل ما جنته يداه[2]، فالأرض في أصل خلقتها كانت بهية جميلة نافعة إلى أن امتدت إليها يد الإنسان فأفسدتها أو شوهتها أو افقدتها جمالها[3]، وينبني على هذا أن الفساد لم يكن له من وجود قبل ظهور الإنسان على وجه الأرض، فهو ما وجد إلا بإيجاده له، وينبني على هذا كذلك أن ما لا دخل للإنسان فيه لا يلحقه الفساد أبدا، فما يقع قضاء وقدرا لا يعد تلوثا وفسادا[4]، ولو أحدث أضرارًا، كالكوارث الطبيعية من زلازل وبراكين وفيضانات وعواصف[5]، لأن النهي عن الفساد حكم شرعي، ولا يخاطب بالحكم الشرعي

---

[1]- النجار: ص181.

[2]- الزحيلي: ص2، فلو تأملنا قوله تعالى:﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾، الأنعام: 38، لظهر لنا جليا أن دواب الأرض خلقت لغايات وحكم اقتضت وجودها، قد ندركها وقد نجهلها، فإن ارتكب الإنسان حماقة تجاهها، وغض بصره عن كل شيء إلا مصلحته الخاصة فإنه سيدفع ثمن جهالته غاليا، ومن ذلك أن حربا شنت منذ سنوات قلائل على الحيات والأفاعي في الهند طمعا في الاتجار بها والارتزاق من ورائها، فأدى ذلك إلى كثرة الفئران بصورة مفرطة، والتي كانت تتغذي عليها تلك الحيات، وبالتالي هلاك محاصيل زراعية، مما هدد حياة الإنسان وغذائه، فسبحان من خلق هذه الدواب، وجعلها أمما، وسخرها لغايات في نظام بديع متوازن، بكرة: ص224، وكذلك الحال نراه في بحر آرال، وهو بحر داخلي في آسيا الوسطى، يقع بين أوزبكستان وكازاخستان، قررت الحكومة السوفيتية في خمسينيات القرن الماضي تحويل مسار اثنين من الأنهار التي تغذيه، في محاولة لري بعض الصحارى، وتحويلها إلى أراض زراعية، فكان أن انكمشت مساحة البحر، وحدث من جراء ذلك أسوأ كارثة بيئية، إذ انهارت صناعة الصيد التي كانت مزدهرة بالمنطقة، وتحول البحر إلى مقبرة للسفن، ونتج عن ذلك تفشٍ للبطالة وركود اقتصادي، وعم التلوث وكانت عواقبه على حياة السكان وصحتهم في غاية الخطورة، بل حدثت تغيرات مناخية في المنطقة المحيطة بالبحر، فصار الصيف أشد حرارة وجفافا، والشتاء أكثر طولا وأشد برودة، مما دعا الحكومة الروسية إلى السعي لإعادة حال البحر إلى ما كانت عليه، ولكن ذلك يحتاج لعشرات السنين لإصلاح بعض ما فسد في سنين قليلة.

[3]- الزحيلي: ص14.

[4]- السدلان: ص32، حمشة: ص29. في حين يعده البعض تلوثا وفسادا، عندما يقسم التلوث إلى نوعين، طبيعي وهو ما يحدث دون تدخل من جانب الإنسان، كالذي يحدث بفعل البراكين والزلازل والفيضانات، واصطناعي وهو ما يحدثه الإنسان بفعله، كنفث عوادم السيارات وأدخنة المصانع وقطع الأشجار واستنزاف الموارد، ولا يبدو لنا هذا صحيحا، فالفساد من حيث من يصدر عنه نوع واحد، فهذا ما نصت عليه الآيات الكريمة، فكلها تنسب الفساد إلى بني البشر، ولأن التأدب مع الله يقتضي منا عدم إطلاق لفظ التلوث أو الفساد على ما يجري في الكون بأمره وقضائه، فبعض هذه الحوادث يقع لحكمة لا نعلمها، وبعضها يكون حدوثه ضروريا لاستمرار النظام وتوازنه، وبعضها يكون ابتلاء وعقابا من الله لبعض الكفرة الجاحدين أو المرقة الضالين. سلطان العلماء: ص9.

[5]- وحتى لو نظرها للمسألة من ناحية ما يحدث من ضرر فالعوامل الطبيعية لا أثر لها يذكر في إحداث الفساد، ففي دراسة أجراها معهد كاليفورنيا التكنولوجي بالولايات المتحدة تبين أن 25% من الرصاص الموجود في جليد المنطقة القطبية الشمالية كان نتيجة عوامل طبيعية، وأن 75% منه

إلا الإنسان[1]، كما أن القانون لا يرتب عليها أثرا إلا في حدود إلزام الدولة بتعويض المضرورين منها ومواجهة الأضرار الناشئة عنها[2].

ويبدو أن الملائكة سبقت بني البشر في التنبه لهذا الأمر، فاستغربت استخلاف الإنسان في الأرض، وأبدت عجبها من ذلك لِما عرفته عنه، ليقينها بأنه لا محدث للفساد غيره، وذلك عندما قالت مخاطبة المولى بلسان الاستغراب لا بلسان الاحتجاج والاعتراض: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾[3]، إذ قدرت أن الإنسان –إن استخلف- سيسخِّر الكون وما فيه لمصلحته هو دون النظر لصالح غيره من الكائنات، مما قد يؤدي بالنظام إلى خلل أو اختلال، ولم تقل الملائكة ما قالت عن الإفساد عندما خلق المولى غير الإنسان من كائنات مع أنها أعظم قوة منه.

- لأن الفساد ضرر وجرم مخالف للمنهج الرباني فهو بهذا فعل جالب للعقاب، والجزاء دائما يكون من جنس العمل، وهذا ما نلمسه في قوله تعالى: ﴿لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾، ولهذا دعا القرآن هؤلاء المفسدين إلى الرجوع عن غيهم وبغيهم وسعيهم بالفساد في الأرض، بقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، فإن هم استجابوا فذلك توبة منهم عما بدر منهم من سوء تصرف، وإن رفضوا الاستجابة لدعوة الحق فذلك منهم جحود لنعم الله وكفر بها، وهذا من موجبات الشقاء والعقاب في الدنيا والآخرة، فيحيق بهم ما حاق بمن سبقهم، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (6) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (7) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (8) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (9) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (10) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (11) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ

يرجع إلى نشاط الإنسان، وأن 01% من الرصاص الموجود في جزيرة جرينلاند بالمنطقة القطبية الشمالية يرجع إلى أحوال الطبيعة، في حين أن 99% منه كان نتيجة النشاط الإنساني. إسلام: ص40.

[1]- حمشة: ص33.

[2]- سلامة: ص9.

[3]- البقرة: 30.

(12) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (13) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾[1]، وقال:﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آَمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾[2]، وذلك لأن الفساد ظلم مؤدٍ للهلاك ومنذر بالخراب، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آَيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾[3]، وقال: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾[4]، ومما يؤكد أن الفساد عقاب هلاك الأمم السابقة بما صدر عنها من أفعال ينطبق عليها وصف الفساد، ولنا في قوم نوح وعاد وثمود ومدين وبني إسرائيل مثلٌ وعبرة، وهذا القصص القرآني لِما حاق بمن سبق من المفسدين فيه لفت لنظرنا علَّنا نفيق مما نحن فيه، ونثوب إلى تعاليم الإسلام، فنحفظ أرضنا من الفساد وأنفسنا من العقاب.

إنالبشرية تواجه اليوم محنة عظيمة وأزمة خطيرة قد لا تدرك أخطارها وآثارها، وقد لا تجد لنفسها سبيلا للإفلات منها، خاصة إذا تمادت في طغيانها، وتعالت عن تدارك تقصيرها، فهي أزمة تقود إلى انتحار جماعي، ينذر بانهيار البيت على الكل، ويفوق عدد ضحاياه ما قدمته الحروب والأمراض والكوارث الطبيعية جميعها[5]، ولا تقتصر أضرارها على الإنسان بل تتعداه إلى الحيوان والنبات، فينقطع النسل وتجدب الأرض ويمنع القطر، فتتحول

---

[1]- الفجر: 6-14.

[2]- النحل: 112.

[3]- القصص: 59.

[4]- يونس: 13.

[5]- هذا يذكرنا بحديث النبي ﷺ التالي، ففيه عبرة لا ينبغي أن تفوتنا، خلاصتها أن الفساد يقع بفعل الجميع وتواطؤهم عليه، وكذلك الصلاح لا يحدث بفعل القلة، بل لابد من تعاون الجميع لإيجاده، ونصح القلة للكثرة وهدايتهم إلى الصالح من العمل، فالفساد وإن أحدثه البعض فإن ضرره سيطال الكل، والحياة لن تكون في مساقها الصحيح إلا بتعاون الكافة وامتناعهم جميعا عن الإفساد في الأرض، حيث جاء في هذا الحديث الشريف قوله ﷺ: "مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا، ولم نؤذ مَن فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا". صحيح البخاري: كتاب الشركة، باب هل يقرع في القسمة؟ حديث رقم 2361.

الحياة إلى مأساة، وكل وسائل النعيم إلى مصادر للشقاء[1]، ولا مفر من هذا كله إلا العودة إلى جادة الصواب والحق، فالإنسان ما أوكل المولى إليه تعمير الأرض واستخراج ما في كوامنها من خيرات وثروات واستخلفه فيها وزوده بكل أدوات الخلافة ولوازمها إلا ليُصلح فيها، فإن أحسن السير في مناكب الأرض ودبر شئونها وعمَّر أقطارها وسار على منهج العدل فيها كان بحق الخليفة في الأرض، وإن لم يحسن القيام على ما استودِع حل به ما حل بغيره، فيورث الله ما كان بيده لغيره، وينزع عنه لباس الخلافة، وصدق تعالى إذ يقول: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾[2]، فمن ثاب إلى الحق ربح، ومن نكص على عقبيه، وتمادى في طغيانه، حاق به مصير من سبقه، فما أهلك من قبلنا إلا اصرارهم على السير في طريق الفساد، فإن تركناه أو رجعنا عنه بعد أن سرنا فيه تجنبنا الكارثة التي حلت بهم.

ضوابط الفساد:

الفساد في اللغة نقيض الفلاح[3]، وهو يتمثل في الخروج عن حالة الاعتدال والاستقامة، قليلاً كان الخروج أم كثيراً[4]، وقد حفل القرآن بآيات تتحدث عن الفساد الذي يحدثه الإنسان في الأرض من معصية وكفر وتفريق الناس عن الدين، كما كان يفعل فرعون وقوم عاد وثمود، وجور وظلم وانتهاك لحقوق الآخرين وتلوث يحدث بالأرض[5]، وقد قررت الآيات التي جاءت بالنهي عن الفساد أن الأصل في المضار الحرمة والمنع، وبناء عليه فضابط ما يعتبر إفساداً في البيئة هو إخراج الشيء عن حالة الصلاح والاعتدال، وعن كونه

1- السرطاوي: ص20.

2- الأنبياء: 105.

3- الفيروزآبادي: ج1، ص291،

4- المناوي: ص556.

5- الفقي: البيئة مشاكلها وقضاياها، ص28.

منتفعاً به، وبعبارة أكثر دقة الإفساد في الحقيقة هو إخراج الشيء عن حالة محمودة لا لغرض صحيح، فإن كان الإخراج لغرض صحيح فليس بإفساد، ومثال هذا إهلاك الحيوان مأكول اللحم بذبحه، فإن فيه إصلاحاً للإنسان.

وبهذا الضابط يدخل تحت مسمى الإفساد وجوه الاعتداءات المختلفة التي يمارسها الإنسان يومياً على البيئة ومكوناتها، وليس فيها مصلحة معتبرة شرعاً، كتلويث المياه والأطعمة والهواء والتربة بأنواع المكونات المختلفة، والتي أثبت العلم الحديث ضررها المؤكد على صحة الإنسان وعلى بقية مكونات البيئة، وأثرها السيء على استنزاف الموارد الطبيعية على اختلاف أنواعها من غابات ومياه وطاقة وغير ذلك.

ويخرج عن مسمى الفساد تحويل الشيء عن حال الصلاح والاعتدال لمصلحة معتبرة شرعاً، وهذا ما فعله النبي ﷺ عندما أمر بقطع نخل بني النضير، ليزداد غيظهم، وتتضاعف حسرتهم بسبب نفاد حكم أعدائهم في أعز ما يملكون من أموال[1]، والذي سجله سبحانه وتعالى وبين علته في قوله: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَاسِقِينَ﴾[2]، وكذلك حين غوّر ﷺ ماء الآبار في غزوة بدر، فكان فعله ﷺ مخصصاً لعموم آيات النهي عن الفساد، لأنه كلما وجد نص خاص يدل على جواز الإقدام على بعض المضار أُخذ به، تقديماً للخاص على العام من النصوص، وإلا بقي الأمر على التحريم الذي دلت عليه نصوص النهي عن الفساد، وفي هذا الإطار ينبغي فهم النصوص الآمرة بقتل أنواع من الحيوانات كالفواسق الخمس وغير ذلك من وجوه الإفساد التي ورد الإذن فيها[3].

---

[1]- ينظر صحيح البخاري: كتاب المزارعة، باب قطع الشجر، حديث رقم 2201، صحيح مسلم: كتاب الجهاد، باب جواز قطع أشجار الكفار، حديث رقم 1746.

[2]- الحشر: 5.

[3]- وقد ورد ذكر الفواسق الخمس في حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: "خمس من الدواب كلهن فاسق، يقتلن في الحرم: الغراب والحدأة والعقرب والفأرة والكلب العقور"، صحيح البخاري: كتاب جزاء الصيد، باب ما يقتل المحرم من الدواب، حديث رقم 1732. وذلك لما فيهن من الأذى والضرر، ويقاس عليهن ما توافرت فيه علة قتلهن.

ويمكن أيضا أن نفهم من الآيات أن الفساد أمر ليس من طبيعة الأشياء، وأنه عارض وطارئ عليها، وهذا يفيد قابليته للزوال، كما يمكننا أن نستنبط أن البيئة الأولى التي أوجدها الله لا يمكن بحال أن تكون فاسدة أو غير صالحة لمعيشة الإنسان وغيره من الكائنات التي تشاركه المقام على هذا الكوكب، فهي بلا شك بيئة خالية من مظاهر التلوث والفساد بصوره وصنوفه كافة، فالبيئة التي خلقها الله، وجعل ما فيها زينة لبني آدم لن تكون إلا خالية من كل ما يكدر الحياة، وينعكس على صحة الإنسان بالسوء، بل إن في بعض مكوناتها شفاء لما يمكن أن يصيب الإنسان من علل وأسقام[1]، وقد حفلت الآيات القرآنية بالحديث عن هذا الجانب المضيء الذي كانت عليه البيئة يوم أن خلق الله السموات والأرض، حيث يحدثنا تعالى عن هذا الكون وما فيه من نعم ظاهرة وباطنة أسبغت على الإنسان، فيقول: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[2]، ويقول: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (96) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[3]، ويقول: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[4]، ويقول: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (5) إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾[5]، ويقول: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ

---

[1]- السرطاوي: ص36.

[2]- البقرة: 22.

[3]- الأنعام: 96-97.

[4]- الأعراف: 57.

[5]- يونس: 5-6.

اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (3) وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[1]، ويقول: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (16) وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾[2]، ويقول: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾[3]، ويقول: ﴿الْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (5) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (6) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (7) وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[4]، ويقول: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[5]، ويقول: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (68) ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[6]، ويقول: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾[7]، ويقول: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا﴾[8].

---

[1]- الرعد: 3-4.

[2]- الحجر: 16-17.

[3]- الحجر: 22.

[4]- النحل: 5-8.

[5]- النحل: 14.

[6]- النحل: 68-69.

[7]- النحل: 81.

[8]- الفرقان: 53.

ورغم التأويلات العديدة لمعنى الفساد -كما مر معنا- فلا مانع من القول بعموم لفظ الفساد، لأنه لا دليل على التخصيص بمعنى معين أو الحصر في نطاق محدد يسري عليه، وها هو جانب من الآيات التي ورد فيها لفظ الفساد يؤكد هذا:

- قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[1]، وهذه الآية دليل على إعجاز القرآن، لأنها أخبرت عن إفساد البيئة وتلوثها قبل أن يقع ذلك[2]، وتنبأت بما سيطرأ على البيئة التي نعيش فيها من تدهور ودمار، وأشارت إلى أنه سيكون نتيجة لما تصنعه يد الإنسان[3]، بل إن القرآن يخبرنا أن الملائكة أشارت إلى إفساد الناس في الأرض قبل أن يُخلقوا، فقالت: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾[4]، مع أن الملائكة لا يعلمون الغيب، وربما كان ذلك بوحي من الله، أو قياسا على حالة الجن، أو فهما من الملائكة أن الخليفة لابد أن يكون مزودا بما يمكنه من التصرف فيما استخلف فيه، ومن شأن هذا أن يكون في نوعه من تجمح به نفسه، ويغلب عليه هواه، فيعتدي ويفسد[5].

- قوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾[6].

- قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾[7].

---

[1]- الروم: 41.

[2]- مروة: ص239، سلامة: ص15، بل إن تلوث الهواء المؤدي إلى تلوث المطر وصيرورته حمضيا ظاهرة أخبرنا عنها القرآن منذ أكثر من أربعة عشر قرنا، إذ ليس مستبعدا أن يكون قد حدث تلوث جوي بفعل البراكين أو غيرها، فأمطر الله على أقوام بغوا في الأرض، كقوم لوط، مطرا حمضيا، أو كما يسميه القرآن مطر السوء الذي دمر حصونهم وأتلف زروعهم، وقد سجل القرآن ذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾، الشعراء: 173، وقوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾، النمل: 58. وانظر الفقي: القرآن وتلوث البيئة، ص24 وما بعدها.

[3]- سلامة: ص2، الحريري: ص4.

[4]- البقرة: 30.

[5]- ابن عطية: ج1، ص166.

[6]- الأعراف: 56.

[7]- البقرة: 11.

- قوله: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[1].

- قوله: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾[2].

- قوله: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[3].

فالنصوص الشرعية تنطق بأن الفساد طابعه العموم، فهو ليس خاصا بنوع أو جنس معين، بل إنه يتغير وفق ما يطرأ على الكون من مستجدات، والنصوص المانعة منه تشمله ولو تغير شكله أو تبدلت صورته، وفي هذا قال القرطبي عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾[4]: "نهى سبحانه عن كل فساد، قل أو كثر، بعد صلاح قل أو كثر، فهو على العموم على الصحيح من الأقوال"[5]، وقال الفخر الرازي: "قوله تعالى: ولا تفسدوا: منع من إدخال ماهية الإفساد في الوجود، والمنع من إدخال الماهية في الوجود يقتضي المنع من جميع أنواعه وأصنافه"[6].

---

[1]- البقرة: 27.

[2]- البقرة: 205.

[3]- الأعراف: 85.

[4]- الأعراف: 56.

[5]- ج7، ص205.

[6]- ج14، ص139.

تلوث البيئة أم فساد في الأرض:

نخلص فيما يتعلق بمسألة المصطلح إلى أن نصوص الكتاب والسنة المطهرة لم يرد فيهما لا مصطلح التلوث ولا مصطلح البيئة، كما جاء هذان المصدران الأساسيان للشريعة خلواً من التركيب تلوث البيئة، ولذا لا غرابة في خلو المدونات الفقهية من أي ذكر لهذين المصطلحين على انفراد ولهذا التركيب، وما هذا إلا لعدم بروز المشكلة البيئية في العصور السابقة كما هو حالها في زماننا.

ومع كثرة التعريفات للبيئة ـكما عرضنا آنفاـ فإنها تتفق جميعها في الإطار العام، ولكنها تختلف في الصياغة والجزئيات، وفق الفرع العلمي الذي ينتمي إليه صاحب التعريف، وبحسب الجانب الذي يعرض له بالدراسة منه، فهناك من نظر للبيئة على أنها مجرد مستودع للموارد الطبيعية والبشرية، وهناك من نظر إليها بحسب تأثيرها في حياة الكائنات الحية، وهناك من أولى الجوانب الاجتماعية والاقتصادية للبيئة اهتمامه[1]، وهذه التعريفات كلها نحت منحى الوصف لا بيان الحقيقة والكنه، وبذا فربطها بالتلوث لا يكشف عن الغايات والعلل من وراء تحريمه وتجريمه، ولا يحدد ضوابط ذلك، في حين أن فقهاء الشريعة انطلاقا من النصوص الشرعية فضلوا مصطلح الفساد في الأرض على مصطلح تلوث البيئة، وهذا راجع لما يأتي:

- القرآن الكريم والسنة الشريفة، وهما مصدر كل بيان وفصاحة وإعجاز، لم يستعملا لفظ تلوث بما يراد به من قولهم تلوث بيئي، بل استعمل القرآن لفظ الفساد، وهو لفظ أقوى دلالة وأوضح بيانا لمفهوم التلوث من اللفظ الذي يستعمله أهل الفكر المعاصر من علماء قانون وبيئة وغيرهم[2].

---

[1]- السايح وعوض: ص32 وما بعدها.

[2]- حمشة: ص29.

- تعامل الإسلام مع البيئة ينطلق من كونها ملكية عامة، يتوجب الحفاظ عليها لمصلحة المجموع حتى يستمر الوجود[1]، وبهذا فالخطر الذي يهددها ليس مجرد تلوث ناجم عن تغيير في بعض خواصها أو خلط مادة بأخرى، بل هو خطر وجودي يسري فساده إلى كل مكونات البيئة.

- البيئة مسخرة للإنسان باعتباره إنسانا، وهذا يوجب عليه حسن التعامل معها، ولن يتحقق له ذلك إلا إذا راعى في تعامله مصالح المجموع وشرع الله، فكان منطلقه في هذا إيمانيا عقائديا، وهذا الفهم يناسبه مصطلح الفساد[2]، أما التلوث فلا أساس لمنعه سوى المصلحة المادية النفعية، وليس الإيمانية، فمنع التلوث ينطلق من منطلقات مصلحية قصيرة النظر، في حين أن المنع من الفساد ينبعث من منطلق الإصلاح وإعمار الأرض، وهذا ليس مقصورا على مجرد الامتناع عن تلويث موارد البيئة أو استنزافها بل يتجلى في الدعوة إلى إنمائها وتنمية مواردها، ولو لم يكن المستفيد من ذلك هو الشخص الذي يستثمر موارد الطبيعة[3]، وهذا ما يتضح من قوله ﷺ: "إذا قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليفعل"[4].

- البيئة خلقت بمقادير محددة وبخصائص معينة تكفل لها حسن السير والاستمرار، قال تعالي: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[5]، وقال: ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾[6]، والإسلام ينظر للبيئة على أنها نظام متوازن، خلق بدقة متناهية تكفل له الاستمرار عبر سلسلة من العمليات

---

[1]- السدلان: ص5.

[2]- الحلو: ص37.

[3]- سلطان العلماء: ص43.

[4]- مسند ابن حنبل: مسند أنس بن مالك رضي، حديث رقم 12569.

[5]- القمر: 49.

[6]- الطلاق: 3.

المتداخلة والمترابطة[1]، فالبيئة الطبيعية في حالتها العادية، دون تدخل مدمر أو مخرب من جانب الإنسان، تكون متوازنة على أساس أن كل عنصر من عناصرها قد خلق بصفات محددة وبحجم وقدر وخصائص معينة، بما يكفل للبيئة توازنها[2]، قال تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾[3]، وبذا فكل عبث به لا يقف عند تلويثه، والذي يعني تلطيخه، بل هو إفساد للنظام برمته، لأن التلوث لا يعدو أن يكون صورة من صور الفساد[4]، يعبر عن بعضها، ولكنه لا يستغرقها، فالفساد اصطلاحا يشمل التلوث وزيادة[5].

- الفكر الوضعي ينظر للبيئة كونها رصيدا للموارد ووسيلة لإشباع الحاجات المادية للأفراد، أما الإسلام فيتعرض فوق ذلك لأساليب التعامل مع تلك الموارد وترشيد استهلاكها، فكان النظر الوضعي قاصرا على الحفاظ على البيئة بقدر ما يبعد الخطر الآني عن الأفراد، فهو علاج لاحق، أما في الفكر الإسلامي بحسب مفهومه للبيئة بأنها الأرض، وأن حياة الإنسان عليها ثابتة مستقرة فالعلاج فيه في أصله وقائي سابق على العلة، وعقابي وتعويضي لاحق على وقوع الفساد، فالفساد كونه مستمرا يناسبه مصطلح الأرض، ففيها يقع وفيها يحال بينه وبين الحدوث، أما التلوث فلأنه حالة عارضة فيناسبه مصطلح البيئة، مع أن ذلك لا يعبر بدقة عن كل حقيقة الفساد بل عن بعضها.

- لم يدرك العالم المعاصر الخطر المحدق به من جراء الفساد في الأرض إلا مؤخرا، ولذا تأخر في الاهتمام بالمسألة بل الشعور بوجودها، إذ لم يظهر الاهتمام بالبيئة وتلوثها إلا

---

[1]- السيد: ص44-45.

[2]- الحريري: ص6، السدلان: ص7، ص58.

[3]- الحجر: 19.

[4]- الحريري: ص6، سلامة: ص14.

[5]- حمشة: ص44.

بعد النصف الثاني من القرن العشرين[1]، وهذا ما يفسر لنا تأخر العلم الوضعي في نحت مصطلحات معبرة عن المراد بتلوث البيئة، في حين أن الشريعة قد سبقت إلى ذلك بقرون عدة[2]، فكانت مصطلحاتها أكثر تعبيرا عن المراد، ليس فقط لأنها الأقدم بل لأن من صدرت عنه أكثر معرفة بالمسألة وطرق علاجها.

- استعمال اصطلاح تلوث البيئة يوحي بأن التلوث البيئي مجرد حصيلة عوامل مادية، كإفساد الجو بالغازات والمياه بفضلات المصانع والمدن بأدخنة عوادم السيارات، وما شابه، ولكن استعمال لفظ الفساد يشير إلى ما ألمح إليه القرآن من جوانب أخرى للفساد تتعلق بالجوانب غير المادية، كالظروف السياسية والاجتماعية والتربوية وتلك التي تخص القادرين على العمل على استصلاح الأرض الموات وصيانتها بالزراعة، لأن المقصود بالفساد هنا، والذي يقصر عن شموله اصطلاح التلوث، الحيلولة دون أن تكون الأرض صالحة للعطاء، وبذا فكل سلوك أو فعل يثبط همم الساعين للعمل والقادرين عليه، ويدفعهم إلى هجرة الأرض، أو إنزال ظلم بهم، أو حرمانهم من حقوقهم فإنه يحدث ذات أثر التلوث الناشئ عن أسباب مادية، وفي هذا يقول تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾[3]، فالله ربط بين إيتاء حق الثمار يوم حصادها من ناحية وبين عطاء الأرض لهذه الثمار وعدم الإسراف من ناحية أخرى، ومؤدى ذلك أنه تعالى يقرر أن استمرار عطاء الأرض مشروط بالعدل الاجتماعي والتعاون بين الناس وعدم الإسراف[4].

---

[1]- أبو الليل: ص4.

[2]- حمشة: ص5.

[3]- الأنعام: 141.

[4]- النجار: ص187.

الخاتمة

نأتي وقد وصلنا بتوفيق من الله تعالى إلى نهاية المشوار مع موضوع البحث إلى استخلاص جملة من النتائج، لعل أهمها:

- جاءت الشريعة أصولا وفروعا وقواعد ومقاصد بمنهج شامل يضمن رعاية البيئة وحمايتها من كل خلل، ويقوم هذا المنهج على أساس الربط الوثيق بين عقيدة المرء واستقامته وبين صلاح محيطه وازدهاره، وجعلت الإخلال به اخلالا بالدين وخروجا عن منهج رب العالمين.

- الشريعة الإسلامية تربط بين الحفاظ على البيئة وحمايتها وبين الأجر العظيم والثواب عند المولى جل وعلا، وهذا النوع من الربط لا نظير له في غير التشريع الإسلامي.

- جاء التعبير القرآني أكثر توفيقا وبيانا وتعبيرا عن جوهر ما تعانيه الأرض، عندما قرر أنه ليس مجرد تلوث بيئي بل هو في الحقيقة فساد في الأرض، كون أن التلوث ليس سوى صورة من صور الفساد في الأرض، والتعبير به لا يكشف عن كل جوانب المشكلة ولا يقربنا من وسائل الحد أو الخلاص منها.

- لم يدرك الإنسان المعاصر أضرار إفساده في الأرض إلا مؤخرا، ولذا تأخر في نحت مصطلحاته المتعلقة بهذا الموضوع، فجاءت قاصرة عن بيان كنه تلويثه للبيئة، معبرة عن مصالح آنية مؤقتة، في حين عالج الشرع الحكيم موضوع الفساد في الأرض بما يكشف عن عمق خطره، وكان علاجه له وقائيا قبل وقوعه وعقابيا تعويضا بعد وقوعه.

وأخيرا يبدو أنه قد صدق من قال أن الإنسان بدأ حياته على الأرض، وهو يحاول أن يحمي نفسه من غوائل الطبيعة، وانتهى به الحال بعد آلاف السنين، وهو يحاول أن يحمي الطبيعة من نفسه، فسبحان من يغير ولا يتغير.

University of Benghazi Faculty of Law
مجلة دراسات قانونية
2018

المصادر

- ابن الأثير (مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد): النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، بيروت.

- إسلام (أحمد مدحت): التلوث مشكلة العصر، سلسلة عالم المعرفة، العدد 152، 1990م، ط1، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.

- الأزدي (سليمان بن الأشعث السجستاني): سنن أبي داود، المكتبة العصرية.

- الألوسي (محمود): تفسير الألوسي، دار إحياء التراث العربي.

- البخاري (محمد بن إسماعيل): صحيح البخاري، ضبطه ورقمه وخرج أحاديثه: مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، دمشق- بيروت، ودار اليمامة للطباعة والنشر، 1414هـ، 1993م.

- البستي(حمد بن محمد الخطابي): معالم السنن شرح سنن أبي دواد، ط1، مطبعة المدني، القاهرة، 2007م.

- البغوي (الحسين بن مسعود): معالم التنزيل، حققه وخرج أحاديثه: محمد عبد الله النمر وآخرون، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض.

- بكرة (عبد الرحيم الرفاعي): أسس التربية البيئية في الإسلام، مجلة دراسات تربوية، المجلد السابع، جزء 40، 1993م.

- البيضاوي (عبد الله بن عمر بن علي): أنوار التنزيل وأسرار التأويل، دار إحياء التراث العربي.

- البيهقي (أحمد بن الحسين): السنن الكبرى، دار المعرفة، بيروت.

- الترمذي (محمد بن عيسى بن سورة): الجامع الصحيح (سنن الترمذي)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار الكتب العلمية، بيروت.

- الجليند (محمد السيد): دراسة أساسية عن حماية البيئة في الإسلام، جامعة الملك عبد العزيز، جدة، 1983م.
- جيرة (عبد السلام): الإسلام والبيئة، ط1، دار السلام، القاهرة، 2000م.
- حجاب (محمد منير): التلوث وحماية البيئة، قضايا البيئة من منظور إسلامي، ط1، 1999، دار الفجر للنشر والتوزيع، مصر.
- الحريري (شافع ذيبان): التشريعات الإسلامية وحماية البيئة، بحث مقدم لمؤتمر نحو دور فعال للقانون في حماية البيئة، والذي نظمته كلية الشريعة والقانون بجامعة الإمارات، أيام 2-4 مايو 1999م.
- الحفار (سعيد): بيئة من أجل البقاء، دار الثقافة، قطر، 1990م.
- الحفار (سعيد): الموسوعة البيئية العربية، جامعة قطر، 1998م.
- الحلو (ماجد): قانون حماية البيئة في ضوء الشريعة، دار المطبوعات الجامعية، الاسكندرية.
- الحمد (رشيد) وصباريني (محمد سعيد): البيئة ومشكلاتها، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 22، 1979م.
- حمشة (نور الدين): الحماية الجنائية للبيئة، دراسة مقارنة بين الفقه الإسلامي والقانون الوضعي، رسالة ماجستير مقدمة لقسم الشريعة بكلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية بجامعة الحاج لخضر، باتنة، الجزائر، سنة 2006م.
- حمود (ألفانا مصطفى): موسوعة الفلك والكون والبيئة والتلوث، إشراف محمد حمود، دار الفكر اللبناني، بيروت، 1994م.
- ابن حنبل (أحمد بن محمد): مسند الإمام أحمد بن حنبل، دار إحياء التراث العربي، 1993م.
- الحوفي (أحمد): معاني السماء والأرض في القرآن، مؤسسة الخليج العربي، القاهرة.

- دربي (فدوى فرحات): الاتجاهات البيئية للشباب وعلاقتها ببعض المتغيرات الديموغرافية، مجلة جامعة بنغازي العلمية، السنة 24، العددان الأول والثاني، 2011م.
- الرباط (عزة): البيئة وجذور التربية البيئية، ط1، مطبعة الصباح، دمشق، 2000م.
- رستم (محمود): حماية البيئة، ط1، منشورات جامعة حلب، 1989م.
- رمضان (محمد رفعت): أصول التربية وعلم النفس، ط5، دار الفكر العربي، 1964م.
- الزحيلي (وهبة): الشريعة الإسلامية وحماية البيئة، بحث مقدم لمؤتمر نحو دور فعال للقانون في حماية البيئة، والذي نظمته كلية الشريعة والقانون بجامعة الإمارات، أيام 2-4 مايو 1999م.
- ابن زكريا (أحمد بن فارس): معجم مقاييس اللغة، دار الجيل، بيروت، 1999م.
- الزمخشري (محمود بن عمر): الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، مكتبة العبيكان، ط1، 1998م.
- السايح (أحمد عبد الرحيم) وعوض (أحمد عبده): قضايا البيئة من منظور إسلامي، مركز الكتاب، القاهرة، 2004م.
- السدلان (صالح بن غانم): الشريعة الإسلامية وحماية البيئة، بحث مقدم لمؤتمر كلية الشريعة والقانون بجامعة الإمارات بعنوان "نحو دور فعال للقانون في حماية البيئة وتنميتها" والمنعقد أيام 2-4 مايو 1999م.
- السرطاوي (فؤاد عبد اللطيف): البيئة والبعد الإسلامي، ط1، 1999م، دار المسيرة للنشر والتوزيع، عمان.
- أبو السعود (محمد بن محمد العمادي): إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، دار إحياء التراث العربي.

- سلامة (أحمد عبد الكريم): حماية البيئة في التشريع الإسلامي، بحث مقدم لمؤتمر "نحو دور فعال للقانون في حماية البيئة وتنميتها"، والذي نظمته كلية الشريعة والقانون بجامعة الإمارات، أيام 2-4 مايو 1999م.

- سلطان العلماء (محمد عبد الرحيم): حماية البيئة من التلوث في الشريعة الإسلامية، بحث مقدم لمؤتمر "نحو دور فعال للقانون في حماية البيئة وتنميتها"، والذي نظمته كلية الشريعة والقانون بجامعة الإمارات، أيام 2-4 مايو 1999م.

- السويدي (حصة عبد العزيز): قضايا بيئية في السنة النبوية، بحث مقدم لمؤتمر "نحو دور فعال للقانون في حماية البيئة وتنميتها"، والذي نظمته كلية الشريعة والقانون بجامعة الإمارات، أيام 2-4 مايو 1999م.

- السيد (السيد عبد العاطي): الإنسان والبيئة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1999م.

-صباريني (محمد سعيد): البيئة ومشكلاتها، ط2، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1984م.

- الصعيدي (عبد الله): بعض الاعتبارات الاقتصادية لمشكلة الاخلال بالتوازن البيئي، بحث مقدم لمؤتمر "نحو دور فعال للقانون في حماية البيئة وتنميتها"، والذي نظمته كلية الشريعة والقانون بجامعة الإمارات، أيام 2-4 مايو 1999م.

- ضاهر (عدنان صادق): أحكام البيئة في الفقه الإسلامي، رسالة ماجستير في الفقه المقارن، مقدمة لكلية الشريعة والقانون بالجامعة الإسلامية في غزة، 2009م.

- الطعيمات (هاني سليمان): البيئة وعلاقتها بحقوق الإنسان والمنهج الإسلامي في حمايتها، مجلة مؤتة للبحوث والدراسات، المجلد 17، العدد الثالث، 2003م.

- ابن عاشور (محمد الطاهر): التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس.

- عبد المطلب (ممدوح عبد الحميد): الأمن والبيئة وانفاذ القانون، بحث مقدم لمؤتمر كلية الشريعة والقانون بجامعة الإمارات بعنوان "نحو دور فعال للقانون في حماية البيئة وتنميتها" والمنعقد أيام 2-4 مايو 1999م.

- عبد المنعم (عمار): مدخل إلى علم الجيولوجيا البيئية، ط1، مركز النشر العلمي بجامعة الملك عبد العزيز، جدة، 2003م.

- ابن عطية (عبد الحق بن غالب الأندلسي): تفسير ابن عطية، ط2، وزارة الأوقاف القطرية، 2007م.

- عمر (أحمد محمد): المياه والحياة بين الوفرة والندرة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، سلسلة قضايا إسلامية، العدد 66، 2000م.

- عيسى (إبراهيم سليمان): تلوث البيئة، أهم قضايا العصر: المشكلة والحل، دار الكتاب الحديث، القاهرة، 2002م.

- غانم (حسين مصطفى): الإسلام وحماية البيئة، معهد البحوث العلمية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1997م.

- فتح الله (علي تاج الدين) والراجحي (ضيف الله بن هادي): التلوث والبيئة الزراعية، جامعة الملك سعود، الرياض.

- الفخر الرازي (محمد بن عمر بن الحسين): التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، ط1، دار الفكر، لبنان، 1981م.

- الفقي (محمد): البيئة مشاكلها وقضاياها وحمايتها من التلوث، مكتبة ابن سينا، القاهرة، 1993م.

- الفقي (محمد عبد القادر): القرآن وتلوث البيئة، مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، 1985م.

- الفيروزآبادي (محمد بن يعقوب): القاموس المحيط، دار الجيل، بيروت.

- القاسمي (خالد محمد) والبعيني (وجيه جميل): حماية البيئة الخليجية، التلوث الصناعي وأثره على البيئة العربية، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، 1999م.
- القدال (أحمد أيوب): الإسلام وحماية البيئة، بحث مقدم لمؤتمر كلية الشريعة والقانون بجامعة الإمارات بعنوان "نحو دور فعال للقانون في حماية البيئة وتنميتها" والمنعقد أيام 2-4 مايو 1999م.
- القرطبي (محمد بن أحمد الأنصاري): الجامع لأحكام القرآن، دار الفكر، بيروت.
- القزويني (محمد بن يزيد بن ماجه): سنن ابن ماجة، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، المكتبة العلمية، بيروت.
- القشيري (مسلم بن الحجاج النيسابوري): صحيح مسلم، صححه وعلق عليه: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، مصر.

مجلة دراسات قانونية 2018